# مراجعات في شواهد الدرس البلاغي

# دراسة نقدية لشواهد في علم المعاني

إعداد

**د. مصطفى نجاح عبدالعزيز عيسى**

مدرس البلاغة والنقد في كلية اللغة العربية

جامعة الأزهر الشريف (المنصورة)

## ملخص البحث

اهتم الدرس البلاغيّ ببلاغة السكاكيّ، واعتمدها تعليمًا ودرسًا؛ لما تتسِم به من دقّة تحديدِ ماهيّة المصطلح والتقسيم، في المقابل لم تعطِ الشاهد حقّه من التذوق والتحليل، فكان الوقوف معها من خلال هذا البحث: (مُراجَعاتٌ في شواهدِ الدّرسِ البلاغيِّ؛ دراسةٌ نقديةٌ لشواهدَ من عِلم المعاني)، اتبعت فيه المنهج الوصفي التحليليّ.

جاء البحث في أربعة مطالبَ: المطلبِ الأول: (مراجعات في شواهد المسند إليه)، والمطلب الثاني: (مراجعات في شواهد المسند)، والمطلب الثالث: (مراجعات في شواهد متعلقات الفعل)، المطلب الرابع: (مراجعات في شواهد الأسلوب الإنشائي)، ثم الخاتمة، وفيها أبرز ما توصلتْ إليها الدراسة، وثبَتٌ لأهم المصادر والمراجع، وفِهرسُ الموضوعات.

# STUDY SUMMARY

The rhetoric study highlights Al Sakkaki rhetoric and adopts it as learning and a lesson as it is very accurate in defining the idiom essence and the allotment. On the other hand, it does not give the evidence its due taste and analysis. So, this study (reviews in the rhetoric lesson… critical study for evidences in semantics ) stands with it. The study adopts the descriptive analytic approach.

The study comes in four sections; the first section (reviews in evidences of the subject), the second section (reviews in evidences of the predicate), the third section (reviews in evidences of the verb attachments), the fourth section (reviews in evidences the essay style), then the conclusion that includes the outcomes of the study, the most important sources and references and the topics index.

D. Mustafa Nagah Abd Al Aziz Eissa
Professor of rhetoric and criticism, Arab Language college
Al Azhar University (Al Mansoura)

□

# المقـدمة

الحمدُ لله الذي نزّل على عبده الكتاب، هدًى وذكرى لأولي الألباب، والصلاةُ والسلام على نبيٍّ الفصاحة؛ محمدِ بن عبد الله، إمامِ المرسلين، وخاتمِ النبيين، وعلى آله وأصحابه؛ نجومِ الهدى، ومصابيحِ الدجى..

## أما بعد

فإنّه من نعمة الله علينا أننا أمةٌ صاحبةُ تراثٍ أصيل مغرسُه، زكيٍّ منبته، صابَر عليه أسلافنا الأوّلون وجالدوا؛ فأرسَوا قواعدَه، وشيّدوا دعائمه.. ثم تركوه لنا وخلّفوه، فله حقّ علينا؛ أن نعكُف على ثغره مرابطين، نُعمِل فيه فِكرنا، ونكدح فيه زنادَ عقولنا، مراجعةً وتحقيقا، تهذيبًا وتنقيحا.. لا أن نتسوَّر عليه، متنكرين له! مُرتَمين في نُفايات ثقافاتٍ غربية غريبة، مولَعين بتَرداد مصطلحاتٍ جوفاء فارغة!!

فالنظرةُ إلى تُراث أمّةِ البيان! لا تكون نظرةَ الإجلال والتقديس، أو الرمي والتهميش! إنما ينبغي أن تكون نظرةَ الغيور الناقد بصبر وبصيرة!

وقد خلّف أسلافُنا تراثًا ضخمًا في علم دلائلِ الإعجاز، إذا تبصّرتَه ألفيت الشاهدَ قِوامه وعماده؛ فمنه مبدؤه، وإليه منتهاه! من الشاهد يكون مولد القاعدة ومنشؤها، وإلى الشاهد تُصرف العنايةُ والدرس!

ثم إن الشاهد البيانيّ مغايرٌ غيرَه من شواهد العربية؛ فسلطانُه رحبٌ لا يُدانى، ومَرامه ممتد لا يُطاول؛ إذ إنه غيرُ مقصور على فئة بعينها،

أو زمان بعينه؛ فـ" المولدون يُستشهد بهم في المعاني، كما يستشهد بالقدماء في الألفاظ. " (١)

وإذا أبصرتَ قاعةَ الدرس البلاغيّ ألفيتَها تخيّرت وارتضت بلاغة السكاكيّ، واعتمدتها تعليمًا ودرسًا؛ لما تتسِم به من دقّة تحديدِ ماهيّة المصطلح، وبراعةِ التبويب والتقسيم، فكانت القاعدة مقصودَها الرئيس. في المقابل صرفَت عنايتَها- فيما أحسب- عن أصيل الدرس (الشاهد البلاغي) فما تذوّقتْه أو تطَعّمته؛ إنما توجّرته وتجرعته! فكانت تَكفيه – غالبًا – لمحةٌ عابرة، أو إشارة خاطفة! فأدبرَ شبابه، وذوى عودُه، وتسلل إليه الوهن والنضوب؛ خلافًا لصنيع الدلائل والأسرار اللّذين أخلصا له؛ فوفّياه حقَّه، وأشبعاه حاجتَه تذوقًا وتحليلا!

لمستُ هذا القصور والتقصيرَ في بعضٍ من الشواهدِ في قاعة الدرس مع طلابي، أحسستُ – فيما بدا لي – أنها شردَت عن مسارها الأصيل في الدرس والاستشهاد، فكان من أمانة العلم، وحقِّه المعقودِ في رقبتنا أن أقف معها بالقراءة والتحليل، والنقد والتعليل! بتَبصُّر سياقاتها، والرجوعِ إلى مظانّ كلام أيمّتنا فيها.

اكتفيتُ منها بما ورد استشهادًا في أبواب علم المعاني؛ حتى أُخلص لها وقوفًا؛ فجاء البحث بعنوان: (مُراجَعاتٌ في شواهدِ الدّرسِ البلاغيِّ؛ دراسةٌ نقديةٌ لشواهدَ في عِلم المعاني)، وارتضَيتُ فيه المنهج الوصفي التحليليّ، وذلك بُغية الكشف عن أبعاد الظاهرة الأسلوبية في الشاهد،

---

(١) العمدة في محاسن الشعر وآدابه لابن رشيق القيرواني تح: محمد محيي الدين عبد الحميد ٢٣٦/١ ط: دار الجيل، ط: الخامسة ١٤٠١ هـ ١٩٨١ م

ومدى وفائها معه، ووفائه معها، من خلال سياقات القول، وإشارات أرباب البيان.

وقد انتظمَ عقدُ البحث في أربعة مطالبَ: المطلبِ الأول: (مراجعات في شواهد المسند إليه)، والمطلب الثاني: (مراجعات في شواهد المسند)، والمطلب الثالث: (مراجعات في شواهد متعلقات الفعل)، المطلب الرابع: (مراجعات في شواهد الأسلوب الإنشائي)، ثم الخاتمة، وفيها أبرز ما توصلتْ إليها الدراسة، وثبَتٌ لأهم المصادر والمراجع، وفِهرسُ الموضوعات.

وأختِمُ بما قاله الجاحظُ في خاتمة كتابه (البيان والتبيين) ".. فإنْ وقعَ على الحالِ التي أردْنا، وبالمنزلةِ التي أمَّلنا، فذلك بتوفيقِ الله – سبحانه– وحُسنِ تأييده، وإنْ وقَع بخلافهَا فما قصّرنا في الاجتهاد، ولكنْ حُرِمْنا التوفيقَ. والله سبحانه وتعالى أعلم." (١)

---

(١) البيان والتبيين تح: عبد السلام محمد هارون ٤/١٠١ طبعة: الخانجي، ط: السابعة ١٤١٨هـ ١٩٩٨م.

# المطلب الأول: (مراجعات في شواهد المسند إليه)

## حذف المسند إليه

يقول الخطيب – بعد ذكر أغراض حذف المسند إليه – " وإما [ أي حذف المسند إليه ] لاعتبار آخر مناسب لا يهدي إلى مثله إلا العقل السليم، والطبع المستقيم؛ كقول الشاعر:

**قال لي: كيف أنتَ؟ قلتُ: عليلٌ      سهر دائمٌ، وحزن طويل**" (١)

لم يذكر الخطيب – تبعًا للسكاكي– علةَ الحذف؛ إنما تركها وَديعةً للعقل السليم، والطبع المستقيم! يُقلّب فيها خواطره، ويُعمِل فيها رويَّته! وللدسوقيّ عبارة جامعة؛ حوت ما ذُكر في معنى الحذف؛ يقول: " ادّعاء التعيين، وضيقُ المقام بسبب ضجر حاصلٍ من شدائد الزمان، ومصائب الهوى، بحيث جعلته لا يقدر على التكلم بأزيد مما يفيد الغرض، ويصلح مثالاً للمحافظة على الوزن أيضًا، فيصح التمثيل بذلك البيت للكل." (٢)

(١) الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني، تح: محمد عبد المنعم خفاجي١/٢/٥ ط: دار الجيل، ط: الثالثة، ١٤١٤هـ ١٩٩٣م. وانظر: مفتاح العلوم للسكاكي ضبطه، وكتب هوامشه، وعلق عليه: نعيم زرزور ص ١٧٦ ط: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الثانية ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧م.

(٢) حاشية الدسوقي (ضمن شروح التلخيص)١/٢٧٧، ط: دار إحياء الكتب العربية، فيصل عيسى البابي الحلبي د.ت. وانظر: معاهد التنصيص على شواهد التلخيص لأبي الفتح العباسي تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، ١/١٠٠ ط: عالم الكتب – بيروت، شروح التلخيص١/٢٧٧، خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني د. محمد محمد أبو موسى ص١٧٥ ط: مكتبة وهبة مصر، الطبعة الرابعة ١٤١٦هـ ١٩٩٦م. بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح عبدالمتعال الصعيدي١/١/٧٠ ط: مكتبة الآداب، ط: الأولى، ١٤٣٠هـ ٢٠٠٩م

عللٌ ثلاث تحيّرت فيها بلاغةُ الحذف! وهي أوجُه – فيما أحسب– يعتريها ضعف وفتورٌ، وذلك لما يلي:

الأولى: (ادّعاء التعيين)، فليس ثمة ادعاءٌ؛ فهو متعين بالفعل؛ فقد ذُكر ضمير الخطاب في السؤال، فيتعين ضمير المتكلم في الجواب، ولا خلاف في ذلك.

الثانية: (ضيق المقام)، وهذا المعنى أكثرُها شهرةً وذيوعًا، فالبيت من الشواهد السيّارة عليه؛ لكن! يُعكِّر عليه أنّ البيت يُساق شاهدًا على الفصل لشبه كمال الاتصال؛ فقوله: (سهر دائم ...) جملةٌ استئنافية جاءت دون عاطف؛ لأنها وقعت جوابًا لسؤال ناشئ عن الجملة الأولى (..عليل)؛ وكأن المخاطب تحرَّكت نفسُه بسؤال مضمونه: ما سببُ علتك؟ فأسرع المتكلم مجيبًا على السؤال قبل أن يُتلفظ به ( سهر دائم، وحزن طويل). (١)

ليت شعري! أين ذهب ضيقُ مقام الحال مع هذه الحركة الخفيّة السارية في باطن المعنى، ومع هذا الحوار المعقود سؤالا وجوابا؟ سؤال ملفوظٌ (كيف أنت؟)، وجوابٌ عليه (قلت: عليل)، تولّد منه سؤالٌ مقدر(ما بال علتك؟) أتي عليه جواب مفصل.. موصوفٌ! (سهر دائم، وحزن طويل!).. أبَعد ذلك يضيق المقام عن ذكر المسند إليه؟ " إنّ المقام يَضيق بذكر جملة، لكنه لا يضيق بذكر كلمة موجزة،

(١) ينظر: دلائل الإعجاز للإمام عبدالقاهر الجرجانى. قرأه وعلق عليه/ محمود محمد شاكر ص١٨٤، طبعة: الخانجي القاهرة، الطبعة الثالثة ١٤١٣هـ ١٩٩٢م ، المفتاح ص١٧٦، شروح التلخيص٣/٥٧.

هي (أنا) "! [١]

الثالثة: (المحافظة على الوزن)، وهي عِلّة لفظية لا تفي بأداء مَهمّة الحذف؛ إنما تكون تبعًا لغيرها؛ مما هو كامن في خوافي السياق.

والقولُ في بلاغة الحذف أنه " لتحسين النَّظم، مع المبادرة بالتوجع من السهر الدائم والحزن الطويل، ولعل هذا هو الاعتبار المناسب الذي عوّل الخطيب فيه على الطبع المستقيم، وهو يستشهد بهذا البيت دون أن يذكرَ بشأنه ضيقًا أو اتساعًا" [٢]، تلمح في الحذف – كذلك – هجرًا للضمير، وعدمَ استحضار (الذات) في الجواب؛ إنه يتحاشى الإسناد الصريحَ الملفوظ به للعلة والمرض إلى ضميره (أنا عليل)، إنّ تغييبَ (الأنا) نابعٌ من دواخل نفسيته تلك التي أنهكها المرض، وأسلمها للسهر والحزن! إنه تغييب لفظي يستتر خلفه رجاءُ زوال ما آلَ إليه جسده ووجدانه!

(١) علوم البلاغة وتجلي القيمة الوظيفية في قصص العرب، المعاني –البيان– البديع، د/ محمد إبراهيم شادي ص٦٧، ط: دار اليقين، الأولى، ١٤٣٢هـ ٢٠١١م.

(٢) السابق نفسه، والصفحة نفسها.

## تعريف المسند إليه بالإضمار

يقول الخطيب: " فإن كان بالإضمار، فإما لأنّ المقام مقامُ التكلم؛ كقول بشار:

**أنا المُرَعَّثُ لا أَخْفَى على أحدٍ ذَرَّتْ بِيَ الشمسُ لِلقاصِي ولِلدَّانِي**

وإما لأن المقام للخطاب؛ كقول الحماسية:

**وأنتَ الّذي أخْلَفْتَني مَا وعَدْتَني وأشْمَتَّ بي مَنْ كانَ فيكَ يَلُومُ**

وإما لأن المقام مقام الغيبة؛ لكون المسند إليه مذكورًا، أو في حكم المذكور لقرينة؛ كقوله:

**مِن البيضِ الوجوهِ بَنِي سِنَانٍ لَو أنَّكَ تستضيءُ بهم أضاءوا**
**هُمُ حَلُّوا من الشَّرَفِ المُعَلَّى ومِن حَسَبِ العشيرةِ حيثُ شاءوا**"(١)

التعريفُ بالضمير لأنّ المقام للتكلم.. أو للخطاب.. أو للغيبة! هل تُبصر بذلك التوجيه وفاءً بحق المعنى، ونهوضًا بإنتاجية الضمير في سياقه؟ هل مثلُ هذا القول يمكن أن تُلقَى إليه مَراسي رجالات البيان؟! وكيف يكون مآل المعنى إذا عُرِض الضمير على سياقه؟

إنّ وضعَ قول بشار:

**أنا المُرَعَّثُ لا أَخْفَى على أحدٍ ذَرَّتْ بِيَ الشمسُ لِلقاصِي ولِلدَّانِي**

في سياقه كافٍ لاستنطاق دلالة معنى الضمير، وبيان مدى الحَيف والقصور الذي لحقه بالاكتفاء بالقول إنّ المقام مقام تكلم! ودونك سياقَ وروده:

(١) الإيضاح ١/٢/١٠، وانظر: المفتاح ص١٧٩، وما بعدها.

لا تَبغِ شَرَّ امرئٍ شَرًّا مِنَ الداءِ ... وَاقدَح بِحِلمٍ وَلا تَقدَح بِشَحناءِ
ما لي وَأَنتَ ضَعيفٌ غَيرُ مُرتَقَب ... أُبقي عَلَيكَ وَتَفــري غَيرَ إِبقاءِ
مَهلاً فَإِنَّ حِياضَ الحَربِ مُترَعَةٌ ... مِنَ الذُعافِ مُرارٌ تَحتَ حَلواءِ
أَحينَ طُلتَ عَلى مَن قالَ قافِيَةً ... وَطالَ شِعري بِحَيٍّ بَعدَ أَحياءِ
أَلزَمتَ عَينَكَ مِن بَغضائِنا حَوَلاً ... لَو قَد وَسَمتُكَ عادَت غَيرَ حَولاءِ
اِطلُب رِضايَ وَلا تَطلُب مُشاغَبَتي ... لا يَحملُ الضَرعُ المُقوَرُّ أَعبائي
أَنا المُرَعَّثُ لا أَخفى عَلى أَحَدٍ ... ذَرَّت بِيَ الشَّمسُ لِلداني وَلِلنائي
يَغــدو الخَليفَةُ مِثلي في مَحاسِنِه ... وَلَستَ مِثلي فَنَم يا ماضِغَ الماءِ(١)

البيت – كما ترى– جاء في سياق فخر وهجاء! فعمودُ الأبيات وقِوامها قائمٌ على معنى المقابلة والمفارقة بينه وبين خصمه(٢) تراه يحطُّ من قدر صاحبه، ويُعلي من منزلة نفسه مزهوّا بها مفتخرًا!؛ فبشار ينهَك عدوه، ببسالة وإقدام! أما خَصمه فليِّنُ العود، ضعيفٌ عن طلب وتره؛ جبان!

في هذا السياق الممتلئ بالمتناقضات والأضداد يتنادَى ضمير التكلم، وما يحمله من معنى الزهو والعجب والفخار! (ما لي.. أُبقي عَلَيــكَ.. وَطالَ شِعــري.. مِن بَغضائِنا.. رِضايَ.. مُشاغَبَتي.. أَنا المُرَعَّثُ لا أَخفى.. ذَرَّت بِيَ.. مِثلي... )، وضميرُ الخطاب وما يُطوَى فيه من معنى الخزي والعار! (لا تَبغِ شَرَّ.. وَاقدَح بِحِلمٍ وَلا تَقدَح بِشَحناءِ.. وَأَنتَ ضَعيفٌ.. وَتَفري غَيرَ إِبقاءِ.. أَلزَمتَ عَينَكَ مِن بَغضائِنا.. لَو قَد وَسَمتُكَ.. اطلُب رِضايَ.. ولستَ مِثلي فَنَم يا ماضِغَ الماء)

(١) ديوان بشار بن برد، تقديم وشرح/ محمد الطاهر بن عاشور١/١٤٧، ١٤٨، وزارة الثقافة، الجزائر، ٢٠٠٧م.

(٢) يحيى بن صالح بن علي بن عبدالله بن عباس. ينظر: الديوان ١/١٤٧

أبصرتَ موقع ضمير التكلم، وكيف أنّ مُرتَكز القصيد عليه، وعلى ضمير الخطاب؟ فأيّ جرم ارتُكب في حق الضمير لمّا اكتُفي في توجيهه بأن (المقام مقام التكلم)؟!

أما قولُ الحماسية:

**وأنتَ الّذي أخْلَفْتَني مَا وعَدْتَني وأشْمَتَّ بي مَنْ كانَ فيكَ يَلُومُ**

فيُعلن عن مقصود الخطاب فيه سياقُ مجيئه؛ فقد جاء في مقام لومٍ وعتاب لابن الدُّمَيْنَةِ.(١)

ابن الدمينة يُعاتبها أولاً بقوله:

**وأنْتِ الَّتي كَلَّفْتِني دلَجَ السُّرَى وجُونُ القَطا بالجَلهَتَين جُثُومُ**
**وأنْتِ الَّتي قطَّعْتِ قَلبي حَزازَةً وقَرَّقْتِ قَرْحَ القَلْبِ فهْوَ كَليمُ**
**وأنتِ الَّتي أحْفظْتِ قَوْمي فَكلُّـمْ بَعيدُ الرِّضا دَاني الصُّدُودِ كَظيمُ**

فأجابت عتابَه بعتاب! قالت:

**وأنتَ الّذي أخْلفْتَني مَا وعَدْتَني وأشْمَتَّ بي مَنْ كانَ فيكَ يَلُومُ**
**وأبْرَزْتَني لِلنَّاسِ ثمَّ تركْتَني لَهُمْ غرَضًا أُرْمَى وأنْتَ سَليمُ**
**فلوْ أنَّ قوْلاً يكْلِـمُ الْجسمَ قدْ بَدَا بِجِسْمِيَ مِنْ قوْلِ الْوُشاةِ كُلُومُ**(٢)

---

(١) ابن الدُّمَيْنَة: عبد الله بن عبيد الله بن أحمد، من بني عامر بن تيم الله، شاعر بدوي، من أرق الناس شعرًا، والدمينة أمه. وهو من شعراء العصر الأموي، اغتاله مصعب بن عمرو السلولي، وهو عائد من الحج، نحو ١٣٠هـ. وكان يتغزل بأمامة في شعره، ثم تزوجها بعد ذلك. ينظر: الأعلام للزركلي ١٠٢/٤ ط: دار العلم للملايين، ط: الخامسة عشر، ٢٠٠٢ م. معاهد التنصيص ١٦٢/١

(٢) شرح ديوان الحماسة للتبريزي، ١٤٦/٢، ١٤٧، ط: دار القلم، بيروت، بدون. وابن الدمينة يقول: أنا لم أتكلف الأسفار في ظلمة الليل إلا لأجلك، فأَمُرّ على أماكن لا يوجد فيها غير القطا، ولم يقطع قلبي غير الوجد بك، وأنت التي أغضبت قومي علي فكلهم بعيد الرضا عني =

واضحٌ طغيانُ ضمير الخطاب في كلامهما دون غيره من الضمائر، حضوره سافرٌ مكشوف؛ ولا غروَ! فالمقام مقام لوم وعتاب، وهو مقامٌ أوثق ما يكون بضمير الخطاب؛ حيث يَجعل المعاتَب ماثلاً حاضرًا أمام المتكلم، حضورًا جسديًا، أو تنزيلاً له هذه المنزلة؛ إذ الأصل أن يكون الخطاب لمن بالحضرة؛ قال ابن يعيش: "والمخاطب تِلْوُ المتكلم في الحضور والمشاهدة"(١)، وهو ما يجعل استجابة المعاتَب أسرع، وانفعاله بالعتاب أشد، وتوبيخه ألذع.

أترى أمامة لو قالت: (وهو الذي أخلفني ما وعدني.. وأشمَتَ بي.. ثم تركني.. وهو سليم) لاحتمل أن يكون كلامُها إخبارًا عن فعل ابن الدمينة بها، وما كان نصًا في عتابه؟ دع عنك أنها تعارض قولَه، مدافعةً عن نفسها، تعمل على هدم عتابه لها، وتُقييم صرحًا آخر في عتابه! وهو مَن بدأ بتعريفها بضمير الخطاب، فكان لزامًا عليها أن تعيد الكرة عليه. ثم إنّ معاتِبها أكثرَ من أسلوب القصر بتعريف الطرفين (وأنتِ التي...) قالها ثلاثًا! فأتت هي الأخرى بالأسلوب نفسه (وأنتَ الذي...)؛ إنها براعة المعارضة، وقوة الحجة!

والبيت الذي اقتطعه الخطيب واستشهد به، ترى فيه – وَحدَه – خمسةَ ضمائرَ جميعُها للخطاب؛ إنّ أمامة اجتهدتْ في تبرئة نفسها من ملامة ابن الدمينة وإلقاء التبعة عليه؛ فهو من أخلفَها الوعد، وأشمت بها

---

=قريب الصد. وهي ترد عليه قائلة: ألومك كما تلومني في خلف الوعد، والشمات بي من كان يلومني فيك، وكشفت أمري بين الناس، وصيرتني غرضا لألسنتهم وأنت سليم منها، فلو فرض أن القول يجرح الجسم لظهر بجسمي جروح كثيرة من قول الوشاة.

(١) شرح المفصل لابن يعيش قدم له: الدكتور إميل بديع يعقوب ٢/٢٩٢ ط: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ط: الأولى ١٤٢٢ هـ ٢٠٠١ م

الوشاة، وجعلها غرضًا يُصوِّب إليه الناس سهامهم! فكانت ضمائر الخطاب زيادةً في اللوم والتقريع!

وأما الشاهد الثالث:

**مِن البيضِ الوجوهِ بَنِي سِنَانٍ لَو انَّكَ تستضيءُ بهم أضـــاءوا**
**هُمُ حلُّوا من الشَّرَفِ المُعَلَّى ومِن حَسَبِ العشيرةِ حيثُ شاءوا"**

فالبيتان لأبي البرج المري في زُفَر بن سِنان، والضميرُ في قوله: (هم حلوا) عائدٌ على بني سنان، بقرينة ذكرهم باسمهم لفظًا تحقيقًا[١]، وقد جعل الخطيبُ علة التعريف هنا أنّ المقام مقامُ غيبة! والحقُّ أن هذا مما يُستغنَى عن ذكره؛ إذ إن التعريف بالغيبة هنا هو الأصل، ولا مقتضى للعدول عنه؛ قال الزركشي: " الأصلُ في الأسماء أن تكون ظاهرة، وأصلُ المحدَّث عنه كذلك، والأصل أنه إذا ذكر ثانيًا أن يذكر مضمرًا للاستغناء عنه بالظاهر السابق." [٢]

فالخطيب – فيما أحسب– صرَف التوجيه لغير ما هو له! فمناط بحث البلاغي –الأصل فيه–أن يكون على مجيء المسند إليه مذكورًا في الكلام (هم حلوا)؛ فما قيل: (حلوا)، كما في البيت بعده:

**بناةُ مَكارِمٍ وأساة كلم دِماؤهم من الْكَلْب الشِّفاء[٣]**

فحذَف المسندَ إليه، وما قال: (هم بناة)، وليس على مجيء ضمير الغيبة؛ لأن المقام مقام غيبة!

---

(١) ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة ١/٢/١٠، حاشية رقم ٣.

(٢) البرهان في علوم القرآن للزركشي تح: محمد أبو الفضل إبراهيم ٢/٤٨٤ ط: دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية د. ت

(٣) شرح ديوان الحماسة للتبريزي ٢/٣٠٥.

إن الشاعرَ يُخبر عن مآثر القوم بقوله: (هم حلوا)، ولو حذف المسند إليه؛ فقال: (حلوا) لتحول الكلام من الاسمية إلى الفعلية، ولا تخفى قيمة الاسمية في هذا السياق، بدلالتها على الثبوت والدوام؛ فحلول القوم في الشرف والسيادة ثابتةٌ قواعده، راسخة أقدامه، لا تزعزعه غوائل الدهر، ولا تضعفه نائبات الأيام!

وبنى البيت بعده: (بناة مكارم، وأساة كلم..) على حذف المسند إليه؛ فالجملة بعد حذفه لا تزال على اسميتها! ثم إنه موطن قطع واستئناف؛ لبيان كمالهم في هذه الصفات؛ فـ" الحذف كما ترى واقع في مقطع من مقاطع المعنى، يوضح ما ذكره في البيت الأول مجملاً، وهو شرفهم وتمكنهم، فذكر أنهم بناة مكارم، هكذا بإطلاقها المستغرق مكارم الجود والنجدة والشجاعة والقوة إلى آخر ما تحمله العبارة، ثم هم أساة كلم، فهم يملكون من الشدة، والحكمة ما يأسون به الجراح؛ وكأن الشاعر أراد أن يبرز تميز هذا الجزء من المعنى بقطعة عن سابقه، وحذف المسند إليه هو وسيلته في ذلك؛ لأنه لو ذكره لقال: هم فيكون رابطًا واضحًا وقويًا بين البيتين، فيفوت غرض الشاعر، والكلام وإن كان على تقديره إلا أن إسقاطه من اللفظ يفيد هذا الغرض. "[1]

(١) خصائص التراكيب ص٢٠٢

## التعــريف باللام

يقول الخطيب: " والمعرف باللام قد يأتي لواحد باعتبار عهديته في الذهن لمطابقته الحقيقة؛ كقولك: (ادخل السوق)، وليس بينك وبين مخاطبك سوق معهود في الخارج، وعليه قول الشاعر:

**ولقد أمرّ على اللئيم يسبني ... فمضيت ثمت قلت لا يعنيني**

وهذا يقرُب في المعنى من النكرة، ولذلك يقدر يسبني وصفا للئيم لا حالا." (١)

قلتُ: وهذا القول عينُ ما قال النحاةُ دون زيادة أو نقصان! فما زادوا شيئًا في توجيههم عما قالوه وأوّلوه! فهل تتساوى دلالةُ المعنى كما لو قيل: (ولقد أمُرّ على لئيم يسبني)؟ ما دام أنه يُعامَل معاملة النكرات؟ وما الذي جعل الشاعرَ الجاهليّ يَحيد عن التنكير إلى التعريف؟

إنّ الجاهليّ كان واعيًا بمُعطيات لغته؛ فليست تتساوى الدلالة عنده في دخول (أل) على اسم الجنس من عدمه، وكان هذا هو الواجب على الدرس البلاغيّ تعرُّفه، والوقوف عنده باستبطان دخائل المعنى، واستجلاء مُخَبّآته في كلٍّ من الحالين؛ فيكون بذلك امتدادًا لصنيع النحاة، لا وقوفًا عند تخريجهم وتأويلهم!

ورحِم الله جارَ الله! فقد كان مُبحِرًا في ثَبَج العطاء القرآني،

---

(١) الإيضاح ٢٤/٢/١، وانظر: المفتاح ص ١٨٥، شروح التلخيص٣٢٧/١، كتاب المطول في شرح تلخيص المفتاح لسعد الدين التفتازانى ص٨٠ الناشر: المكتبة الأزهرية للتراث مطبعة أحمد كامل ١٣٣٠هـــ.

مستمدًا منه فارق الأسلوبين؛ يقول في قوله تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } [الفاتحة: ٢] " فإن قلتَ: ما معنى التعريف فيه؟ قلتُ: هو نحو التعريف في (أرسلها العراك)، وهو تعريف الجنس، ومعناه الإشارة إلى ما يعرفه كل أحد من أنّ الحمد ما هو، والعراك ما هو، من بين أجناس الأفعال "(١)، وفي قوله تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ} [البقرة: ١٣] يقول:" واللام في {النَّاسُ} للعهد... أو للجنس أي: كما آمن الكاملون في الإنسانية، أو جعل المؤمنون كأنهم الناس على الحقيقة، ومن عداهم كالبهائم في فقد التمييز بين الحق والباطل." (٢)

أي إنّ تعريف الجنس فيه استحضارُ الشّيات والأوصاف! ليس فيه تعريفٌ بالرّسم، لكنه تعريفٌ بالوصف! إشارة وتلميحٌ إلى ما هو معروف من كُنه وصف الحمد أو الناس. إنّ اسم الجنس دون (أل) يتمحض للدلالة على مسماه دون التفات لشيء آخر معه، فإذا دخلته (أل) استحضرت وصفَه، وهيّجته في سياقه وأشاعته؛ كما استحضرت صيغة المضارع صورة الحدث، ومثّلته شاخصًا بعد أنْ كان مندثرا في الزمن السحيق! ففي المضارع استدعاءٌ للزمن، وفي دخول (أل) استدعاءٌ للوصف.

وقد برزَتْ هذه الدلالة الزمخشرية عند العلامة الطّاهر؛ فقد وظّفها في كثير من آي الذكر الحكيم؛ يقول في قوله تعالى: {أَزِفَتِ الْآزِفَةُ} [النجم: ٥٥] " والتعريف في {الْآزِفَةُ} تعريف الجنس، ومنه زيادة

(١) الكشاف تح: محمد الصادق قمحاوي١/٤٩ طبعة: مصطفى الحلبي، مصر، الطبعة الأخيرة ١٣٩٢هـ ١٩٧٢م

(٢) السابق ١/١٨٢

تهويل بتمييز هذا الجنس من بين الأجناس؛ لأن في استحضاره زيادة تهويل؛ لأنه حقيق بالتدبر في المخلص منه." (١)

نعود للجاهليّ!! شِمْر بن عَمرو الحَنفيّ: (٢)

**ولقد أمرُّ على اللئيم يسبني ... فمضيت ثُمّتَ قلتُ لا يعنيني**

**غضبانُ مُمتلئاً عليَّ إِهابهُ ... إنِّي وربِك سُخطهُ يُرضِيني**

نراه قصد المضارع (أَمُرُّ) عدولا بـه عـن الماضـي إنتاجًـا لاستمراريّة الحدث؛ فليس شيئًا عابرًا قد انقضى أمدُه! ثم عدل عنه إلى ماضوية الحدث (فمضيتُ ثُمَّتَ قُلت) توكيدًا وتحقيقًا؛ " فكأنه قال: أمـر دائمًا على لئيم عادته سبي، ومواظب على سبِّي بأنواع الشتائم، فأمضي ولا ألتفت إليه " (٣)، وهذا شيءٌ عجيبٌ في القولِ ومـا يُقابـل القـولَ! وأعجبُ منه ما جاء في وصف الهيئة (غضبانُ..) بوصـف المبالغـة، وتسليط الضوء عليه بإسقاط المبتدأ، (.. مُمتلئاً عليَّ إِهابهُ) جملة كنائية تصور حمقه وانتفاخه وعجرَفته فالإهاب الجلد قبل أن يدبغ .. وربمـا استعير لجلد الإنسان.(٤) ثم تكون المفارقة بما يقابله به: (إنِّـي وربِـك سُخطهُ يُرضِيني)!

كيف يُعقَل منه ذاك الرضا، أو يُصدَّق منه مقابلةً بهـذه الأقـوال

(١) التحرير والتنوير للإمام محمد الطاهر بن عاشور ٢٧/ ١٥٩، ط: دار سحنون، تونس، ١٩٩٧م. وانظر: ١/١٥٩، ١٤/٢٩٠،٢٥/ ١٣٨

(٢) الأصمعيات تحقيق وشرح: محمد نبيل طريفي ص٣٧، ٣٨. دار صادر، بيروت ط: الثانية ١٤٢٥هـ ٢٠٠٥م.

(٣) حاشية الدسوقي ٣٢٧/١

(٤) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للفيومي ١/ ٢٨ ط: المكتبة العلمية، بيروت، د.ت.

والأفعال؟ لا عجبَ! ذاك أنه استحضر وصف اللئيم وسجاياه فهانَ عليه ما يصنعه، وما أبَه له بقول أو فعل! استحضر جِبلّته؛ يظلم الضّعيف، ويقتل الصّريع، ويجهَز على الجريح، ويطلب الهارب، ويهرُب من الطّالب، يعقّ أباه، ويحسد أخاه، ويظلم الضّعيف...[1] أمَن هذه خليقته يُعرَّج لقوله، أو يُكتَرث لفعله؟!

إنّ دخول (أل) على اسم الجنس هو الذي عكس هذه الظلالَ وأشاعها؛ فكان حقًّا للشاعر أن يمضيَ في رضًى وسماحة؛ فأيُّ جريرة ارتُكبت في حق (أل) لما اكُتفي عند دخولها على اسم الجنس بالقول: " لقرب المسافة – إذا تأملت – بين أن يُعرّف الاسم هذا التعريف، وبين أن يُترَك غير معرف به يعامَل معرفُه كثيراً معاملة غير المعرّف " ؟![2]

(١) الرسائل الأدبية للجاحظ ص١٣٦، ١٣٧ ط: دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط: الثانية ١٤٢٣هـ

(٢) مفتاح العلوم ص١٨٥

## الإضـــافة

يقول الخطيب: "وإن كان بالإضافة فإما لأنه ليس للمتكلم إلى إحضاره في ذهن السامع طريق أخصر منها؛ كقوله:

**هواي مع الركب اليمانينَ مُصعِد  جنيبٌ وجُثماني بمكة موثقُ" (١)**

اجتمعت كلمةُ البلاغيين على أنّ الغرض من الإضافة هنا مجردُ الاختصار لضيق المقام؛ فقوله: (هواي) أخصرُ من أن يُقال: (الذي أهواه)، وهذا الاختصار هو المناسب للمقام، فالشاعر ضائقٌ سجين، وهذا الضيق يحول بينه وبين إطالة الكلام وبسطه! (٢)

وتفسيرُ الإضافة على هذا الوجه دون سفَر لأدغال النص، ورجوعٍ لسياقه، ومداخل وروده، فيه حجبٌ لضوئها، وإطفاء لوهَجها! البيتُ لجعفر بن علبة الحارثي؛ كان سجينًا بمكة، فزارته صاحبته مع ركب قومها، فلما قفلت راجعةً معهم قال هذه الأبيات:

**هواي مَعَ الركب اليمانين مصعد  جنيب وجثماني بِمَكَّة موثق**
**عجبت لمسراها وأنى تخلصت  إِلَيّ وَبَاب السجْن دونى مغلق**
**ألمت فحيت ثمَّ قَامَت فودعت  فَلَمَّا تولت كَادَت النَّفس تزهق**
**فَلَا تحسبي أَنِّي تخشعت بعدكم  لشَيْء وَلَا أَنِّي من الْموْت أفرق**
**وَلَا أَن نَفسِي يزدهيها وعيدكم  وَلَا أنني بِالْمَشْي فِي الْقَيْد أخرق**
**وَلَكِن عرتني من هَوَاك صبَابَة  كَمَا كنت أَلْقى مِنك إِذْ أَنا مُطلق(٣)**

---

(١) الإيضاح ٣٣/٢/١، ٣٤

(٢) ينظر: مفتاح العلوم ص١٨٦، شروح التلخيص ٣٤٤/١، ٣٤٥، خصائص التراكيب ص٢١١.

(٣) شرح ديوان الحماسة للتبريزي ١١/١، ١٢. والشاعر يقول: إن محبوبته مع ركبان الإبل القاصدين نحو اليمن، وهو مأسور مقيد بمكة، ثم يتعجب لمسرى خيالها، كيف نزل به، ثم خرج وباب سجنه مغلق محكم، جاءتنا فسلمت علينا ثم لم تلبث إلا قليلا حتى قامت وأعرضت فلما تولت كادت النفس تخرج في أثرها، ثم بين أنه لم يكترث بما حل به؛ لاستهانته بما اجتمع عليه من الحبس والقيد.

إنها لقصةٌ من نسج خيال الشاعر، وصفَ فيها رحلة محبوبه وصفًا دقيقًا مفصلا إلى سجنه؛ بدءًا من موطنها (اليمن)، وانتهاءً بسجنه في (مكة)! وكيف تخلصت إليه من زحام السلاسل والأقفال! وتأمل قولَه: (ألمّت فحيت، ثمَّ قَامَت فودعت) أما يكفي فيه (زارت فودعت) ما دام القول لضيق المقام؟ إلى غير ذلك مما بثّه في حنايا أبياته من نسج خياله من معانٍ كانت تكفيه الإشارات بدلا من الجمل والعبارات!

ليس للاختصار مكانٌ في كلماته أو أسلوبه ونسْج خياله؛ فضلا عن أن يكون للإضافة في صدر أبياته (هواي)! فالشاعر أفاض في الحديث عن خيال المحبوب وزيارته! ولو كان الاختصار مهيعه لقال: (هي مع الركب..)، فهذا أولى به مما جاء عليه قوله.

إنّ جزأي الإضافة كجناحَي طائر! لا يُكتفَى، ولا يستغنى بأحدهما عن الآخر، إنها أعلنت عن مدى التمازج والتشارب بينه وبين محبوبه؛ ألا تراه " أطلق الهوى على المهوي" [(١)]، وإنّ تباريح الهوى، ولواعجَ العشق تنمو وتعلو مع البعد والاغتراب؛ بلْهَ قيدٌ وسجنٌ! ألا تراها إضافةً معنوية خالصةً من تقدير الانفصال، جاءت بمعنى اللام؛ فأفادت الاختصاص[(٢)] أي إنّ هذا المحبوبَ وحدَه هواه، ليس له هوًى غيره! ألَهُ شيء من هذا لو قيل: الذي أهواه مع الركب اليمانين، أو هي مع الركب اليمانين؟! وهذا ما يكشف عن كلْمه وأساه! فالموت ينتظره في سجنه، لكنه لا يخشاه! لا شيء يزعجه سوى أنه لم يعد يقدر على رؤية من اختصت بهواه!

---

(١) بغية الإيضاح حاشية رقْم ٦، ص٩١

(٢) ينظر: شرح المفصل٢/١٢٧

ومما أوردوه نكتة للإضافة ما جاء في قولهم: " أو لأن إضافته حصول مطلوب آخر مثل: أن تُغني عن التفصيل المتعذر، أو الأولى تركه بجهة من الجهات؛ كقوله:

**بنو مطر يوم اللقاء كأنهم ... أسود لها في غيل خفان أشبل**

وقوله:

**قومي هم قتلوا أميم أخي ... فإذا رميت يصيبني سهمي" (١)**

وهذا المعنى في الإضافة قريبٌ من سابقه ( ليس للمتكلم إلى إحضاره في ذهن السامع طريق أخصر منها )، لكن! هل تُبصر هذه الدلالة كافيةً للنهوض بالمعنى الوظيفي للإضافة؟ هل تراها بذلك المعنى استوتْ على سوقها، وتناغمت مع سياقها وتشاربت مع غيرها من النكات لإبراز مقصود الكلام؟

حقيقةُ القول: إنّ هذا المعنى في الإضافة فيه من العموم والشيوع ما يجعله غير كافٍ للنهوض بالكشف عن السرِّ الحقيقيّ المنوط بالإضافة في موقعها؛ فهو يصلح أن يتردد في أكثرَ من سياق جاء الكلام فيه على هذا الحذو؛ ومن ثم فالأحرى أن يكون معنى ابتدائيًا يُعدّ مهادًا وتوطئة لغيره من المعاني الخاصة المكنونة في سياق القول، لا أن يكون غرضًا أصيلا لطريق التعريف!

وتأمل الإضافةَ في البيتين؛ تراها في الأول إلى الاسم الظاهر (بنو مطر)، وكان من الممكن أن يقول ( قومك يوم اللقاء..)، وفي الثاني إلى الضمير (قومي)، وكان من الممكن أن يقول: (بنو جرم هم قتلوا..)،

---

(١) مفتاح العلوم ص١٨٦ وانظر: الإيضاح ٣٤/٢/١، شروح التلخيص ٣٤٦/١.

وهذا التباينُ في الإضافة للضمير تارة، والاسم الظاهر أخرى- فضلاً عن إيثار طريق الإضافة- له دلالته التي تشعُّ من خلال السياق في كلٍّ منهما.

إنّ الإضافة في قول الحارث: (قومي هم قتلوا أميم أخي...) يفيضُ منها معنى الأسى والتفجُّع؛ فالشاعر لاعَه الحزن، وملأ جانبيه الكمد؛ وأصابه همٌّ يُذيب لفائف القلوب! فما قتل أخاه غير قومه، فماذا يصنع، أيثأر لنفسه من نفسه؟ إنها الإضافة إلى ياء المتكلم "إضافة القوم القاتلين إلى النفس الموجوعة بهذا القتل "[1]، إنه تفجُّعٌ بلغ منتهاه؛ أوصله إلى هَجْر صريح لقب قومه (بنو جرم)؛ فما يقدر عليه نطقًا! فهو مما يَنقطع دونه النُّطق، ويحسِر دون بُلوغه الكلام، كيف وقد قتلوا أخاه؟! في الوقت ذاته تُعلن الإضافة إلى الضمير – دون صريح لقب القوم- عن بقاء آصرة من القربى في مكنون نفسه؛ ففضيحتهم فضيحة له، إنه السِّتر على لقب القبيلة؛ وعدم التشهير به؛ حتى لا يفشو ذكره على الألسنة والأفواه!

ثم إنك ترى هذا التحسرَ والتفجع ماثلا في مجيء الضمير توكيدًا للاسم الظاهر (قومي هم)؛ كأنه لا يصدق أنّ ما ألمّ بأخيه كان من قومه؛ فهو توكيد يُجسِّد ما يعتمل في نفسه من خلل واضطراب صرفه عن إيقاع الفاعل في قوله: (قتلوا) مباشرة على المفعول (أخي)، إنما جاء بجملة النداء (أميم) معترضةً بينهما تجسيدًا لاستبعاده واستغرابه، وأنه أمرٌ لا يخلُد إليه يقينُه، ويبعُد عنه معتركُ ظنونِه! فما اسْطاعَ في اعتراضه من تفجعه وأساه أن يُكمل جملته؛ فجاءت مبتورة بداءةً

(١) خصائص التراكيب ص٢١٢

ومنتهى؛ حُذف حرفُ ندائها، ورُخِّم مُناداها!

وفي قول مرْوان بن أبي حفصة يمدحُ مَعن بن زائدة (بنو مطر يوم اللقاء..) هل يكفي في بيان مغزاها أن تفصيل ذكرهم أمر متعذر؟ أم يُقال إنها وشتْ بمعانٍ تتناغى وسياق الفخر كالتفخيم والتعظيم والزهو.. وغيرها، آثرَ معها الاسم الظاهر (لقب القبيلة) لا الضمير (قومك) إعلامٌ بجلاء مآثرهم ونصوعها، وأنهم بها موسومون، الإضافةُ للاسم الظاهر - كذلك- تتناسب وغرض المديح حتى يصير اللقب حاضرًا في الأذهان، تتناقله الركبان! يجوبُ الآفاق، ويطير ذكره في الأرجاء! وهذا هارون الرشيد لما كان في الحج إذ عرض له أعرابيٌّ من بني أسد فأنشده شعراً مدحه فيه وأفرط؛ فقال له هارون: ألم أنهك عن مثل هذا في مدحك يا أخا بني أسد؟ إذا قلت فينا فقل كقول القائل في أب هذا: بنو مطر يوم اللقاء كأنهم...(١)

ثم إنك ترى هذه الكلمة (بنو مطر) ركيزةً انطلق منها الشاعر للحديث عن كريم أصل القوم، وأنهم ملاذًا لأولي الحاجة، ومعدِنًا لكلِّ فضل ومروءة، تراهُ بنى عليها سائر الأبيات، وأعاد عليها ضميرهم؛ تأمل قوله:

**بَنو مطـرٍ يَومَ اللقــاءِ كأنّهمْ ... أُسودٌ لَها فِي غِيْلِ خَفّانَ أشْبُلُ**
**هم المانِعُون الجَارَ حَتَّى كأنَّما ... لجَارهمُ بَين السِّماكَيْنَ مَنْزِلُ**
**بَهاليلُ فِي الإسلامَ سَادُوا ولَم يَكُنْ ... أوَّلهمْ فِي الجَاهِلِيَّــةِ أَوّلُ**
**وما يستطيعُ الفاعلــون فِعالهم ... وإنْ أحسنوا في النائبات وأجملوا**

---

(١) ينظر: العقد الفريد تح: مفيد محمد قميحة ١/٢٥٩، ٢٦٠ دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ط: الأولى ١٤٠٤هـ ١٩٨٣م

**هُمُ القَوْم إنْ قالوا أصابُوا وإنْ دُعُوا ... أجَابُوا وإنْ أعْطَوا أطابُوا وأجْزَلوا** (١)

إنّ ما كمُن في الإضافة، وانغلَّ فيها من معانٍ صدَع به الشاعر، وأعلن عنه فيما بعدها من أبيات..؛ فكانت الإضافة بمثابة المعقِد والمنطلق الذي تفرعت عنه الفضائل، وبُنيت عليه المحامد!

(١) السابق نفسه، والصفحة نفسها.

## وضع المظهر موضع المضمر

يذكر البلاغيون له أغراضًا؛ منها: "إذا أريد تمكين نفسه زيادة تمكين؛ كقوله: أن تسألوا الحق نعط الحق سائله، وقوله عز قائلا: {اللَّهُ الصَّمَدُ} [الإخلاص: ٢] بعد قوله {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} [الإخلاص: ١]، ونظيره خارج باب المسند إليه {وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ} [الإسراء: ١٠٥]، وكذا {فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ... } [البقرة: ٥٩]." (١)

ومرادُ البلاغيين بزيادة التمكين في وضع المظهر موضع الضمير" التقرير والتثبيت حتى يكون مستحضَرًا لا يزول عن البال" (٢) فلو قيل – في غير القرآن– (هو الصمد) " لكان فيها استحضارٌ للذات بالضمير، لكن لم يكن فيه تمكن وتقرر؛ لأن في الضمير إيهامًا بخلاف المظهر فإنه أدل على التمكن...، والتمكن يناسب التعظيم والإفراد بالصمدية اللَّذين هما الغرض من هذا الخطاب. " (٣)

ومحِلّ الإشكال: هل معنى (زيادة التمكين) تُبصره في قوله تعالى: {فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ...}، كما تراه في قوله سبحانه: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ}؟

أحسب أنّ الاستشهاد بآية البقرة لهذا الغرض فيه قصور وحَيفٌ على المعنى؛ إذ إنه توجيهٌ سارحٌ عن المقام، غاربٌ عن سياق الآية! وإلا لمَ غابتْ (زيادةُ التمكين) في قوله تعالى: {فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا

---

(١) مفتاح العلوم ص١٩٨، وانظر: الإيضاح ٨٤/٢/١، بغية الإيضاح١٣٦/١/١، شروح التلخيص٤٥٧/١، خصائص التراكيب ص٢٤٥

(٢) عروس الأفراح ٤٥٧/١

(٣) حاشية الدسوقي بتصرف٤٥٧/١

يَظْلِمُونَ} [الأعراف: ١٦٢]، وجاء الكلام على أصله بالضمير، دون عدول للظاهر، والحديث واحدٌ في الآيتين؟!

إنّ مفصِل التوجيه مكنونٌ في سياق القول؛ فهو صاحب الكلمة العليا في اصطفاء ما يحتاجه ويتواءم معه؛ فرغم تلاقي الآيتين في المعنى إلا أنك تلمس تغايرًا في الألفاظ والأساليب أوجبَه المقام، وحتمه السياق في كل منهما.

فآية (البقرة) تأتي في سياق تَعداد النعم التي أنعم الله بها على بني إسرائيل يذكرهم بها، وهذا التذكير يبدأ من قوله سبحانه: { يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ } [البقرة:٤٠]، ويختم التذكير بقوله سبحانه: {يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ} [البقرة:١٢٢]

بينما آيةُ الأعراف تأتي في سياق التقريع والتعنيف لبني إسرائيل؛ فبعد أن نجاهم الله – سبحانه – وأغرق عدوهم {...قَالُوا يَامُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ...} [الأعراف: ١٣٨]، ولما ذهب موسى لميقات ربه عبدوا العجل { وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ...} [الأعراف:١٤٨]، ثم انتهكوا حرمات الله، ولم يمتثلوا أمره بترك الصيد يوم السبت {وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ} [الأعراف:١٦٣]. وهذا السياق الجزئي في السورة يتناغم مع السياق الكلي لها، وما فيها من ذكر لأحوال الرسل مع أقوامهم، وما لاقوه من عنادهم وأذاهم. (١)

---

(١) ينظر: الأساس في التفسير سعيد حوى ١/١٣٤ط: دار السلام، ط: السادسة ١٤٢٤هـ ٢٠٠٣م. والتعبير القرآني د/ فاضل صالح السامرائي ص٣١٢، ٣١٣ ط: دار عمار ط: الرابعة ١٤٢٧هـ ٢٠٠٦م، والتحرير والتنوير٥/٨/٨، البلاغة القرآنية في التفسير البسيط للباحث: مصطفى نجاح عبدالعزيز ص٣٤٨ (مخطوط كلية اللغة العربية بالمنصورة، جامعة الأزهر)

من خلال تبصُّر هذين السياقين يتبين سرُّ التغاير في الآيتين؛ وضْعُ الظاهر موضع الضمير في سورة البقرة {فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا} لم يأتِ (لزيادة التمكين!) إنما لإنتاج معنى التخصيص والتعيين؛ فالرجز للظالمين خاصة دون غيرهم، وليس على سبيل العموم، وهو ما يتناغى مع سياق العطاء، وتَعداد النعم. أما مجيء الضمير في سورة الأعراف فلما يسكنه من معنى الإيهام والعموم وهو ما يتناسب مع سياق التقريع والتأنيب، وتأمل قول الإمام الطاهر: " وإنما جاء بالظاهر موضع الضمير في قوله: {فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا}، ولم يقل: (عليهم) لئلا يتوهم أن الرجز عمّ جميع بني إسرائيل"(١) من أجل هذا التوهم المُفاد من استعمال الضمير وضع المضمر فكان مناسبًا لمقام التقريع.

كذلك ترى نظم الآيتين يتعاضد في إبراز هذين المعنيين؛ تُبصر في الأعراف زيادة {مِنْهُمْ} في قوله: {فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ}؛ لأن في ذكرها " تصريحًا بأن الظالمين كانوا من بني إسرائيل، ولم يُذكر في البقرة {مِنْهُمْ}، فلم يصرح بأنهم منهم تكريمًا لهم. " (٢)

وفي سورة البقرة جاء التعبير بقوله: {فَأَنْزَلْنَا}، وفي سورة الأعراف {فَأَرْسَلْنَا} وفرق بين دلالة المادتين، فالمعنى المحوري لمادة (رسل) يدل على الامتداد والتتابع؛ قال ابن فارس: " الراء، والسين، واللام أصلٌ واحد مطرد منقاس يدل على الانبعاث والامتداد." (٣) أما مادة (نزل) فتدل على مجرد الهبوط والانحدار، وليس فيها ما يدل على

(١) التحرير والتنوير ٥١٦/١

(٢) التعبير القرآني ص٣٢٠

(٣) مقاييس اللغة لابن فارس تحقيق وضبط: عبدالسلام محمد هارون٣٩٢/٢، طبعة: دار الفكر، ط: الأولى ١٣٩٩هــ ١٩٧٩م. وانظر: المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم د. محمد حسن حسن جبل، ٧٩٩/٢ ط: مكتبة الآداب، ط: الأولى٢٠١٠م.

معنى التتابع والاتصال؛ قال ابن فارس: " النون، والزاء، واللام كلمة صحيحة تدل على هبوط الشيء ووقوعه. "(١)

وهذا الاختلاف الدلالي للفعلين ترتب عليه تناغُمُ كل لفظ في سياقه؛ فإنزال الرجز مرة واحدة يتناسب مع مقام التذكير، وإرساله متتابعًا متواصلاً يتناسب مع مقام التقريع.

ثم تأتي فاصلة سورة البقرة: {بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ}، وفاصلة الأعراف {بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ}، والظلم أشد من الفسق؛ إذ هو مسبب عنه؛ فالإنسان لا يقع منه ظلم إلا إذا كان متصفًا بالفسق(٢)، ثم عن الفسق هو " الخروج عن الطاعة " (٣)، فهو شيء لازم لا يتعدى للغير، أما الظلم فهو" وضع الشيء غير موضعه تعديًا "(٤) فالإنسان يظلم نفسه، ويقع من ظلم على غيره.

أرأيتَ كيف نادى مقامُ الامتنان والإنعام على المظهر، وآثره على المضمر لإبراز دلالة (التخصيص والتعيين)؛ بينما مالَ مقام التقريع والتأنيب إلى الضمير لما يسكنه من إيهام وعموم؟ وكيف التقت خصوصياتُ النظم في الآيتين، وتناغمت استجابةً لسياق كلٍّ منهما، وحاجةِ المقام فيهما؟

□

(١) مقاييس اللغة ٤١٧/٥ ، وانظر: المعجم الاشتقاقي ٢١٨٠/٤

(٢) ينظر: تفسير الشعراوي ٤٤٠٤/٧، مطابع أخبار اليوم ط: ١٩٩٧م، التعبير القرآني ص٣٢٢

(٣) مقاييس اللغة ٥٠٢/٤

(٤) السابق ٤٦٨/٣

## الالتفــات

يتحدث الخطيبُ عن نكتة الالتفات الخاصة؛ فيقول: " وقد تختص مواقعه بلطائف: ... كما في قوله تعالى: {وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ} [النساء:٦٤]، لم يقل: (واستغفرت لهم)، وعدل عنه إلى طريق الالتفات تفخيمًا لشأن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتعظيمًا لاستغفاره، وتنبيها على أن شفاعة من اسمه الرسول من الله بمكان." (١)

فالخطيب -تبعًا للزمخشري-(٢) يذكرُ النكتة الخاصة للالتفات من الخطاب إلى الغيبة (الاسم الظاهر) تفخيمًا وتعظيمًا لشأن الرسول وشفاعته، ومعلومٌ بلاغةً أنّ نكتة الالتفات الخاصة ينبغي أن يكونَ لها مزيدُ خصوصية وعناية بسياقها؛ فلا يمكن حملها على غيره من السياقات؛ فهل هذه الفائدة تنهض بذلك؛ ولا يمكن أن يكون توجيهًا عاما يصلح في أيّ سياق ورد فيه العدول إلى لفظ (الرسول)؟!

الحقيقة – فيما أحسب– أنّ هذا التوجيهَ لا يعدو أن يكون هو الآخر من الفائدة العامة للفظ؛ فلا يعكس معنى دقيقًا لوروده في سياقه؛ إنه توجيهٌ ينبغي أن ننطلق منه لتلمُّس ما كمُن في خوافي السياق من معانٍ وأسرار نادتْ على الاسم الظاهر وأحضرته!

---

(١) الإيضاح بتصرف وحذف ١/٢/ ٩١،٩٢، ٩٣، وانظر: شروح التلخيص١/٤٧٥، البرهان٢/٤٩٣، بغية الإيضاح (١/ ١٤٤) من بلاغة القرآن أحمد أحمد بدوي ص٨٩ ط: دارنهضة مصر، د.ت.

(٢) ينظر: الكشاف١/٥٣٨، والبحر المحيط تح: د/ عبد الرازق المهدي٣/٤٠٣ ط: دار إحياء التراث العربى، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م، والتفسير الكبير٥/١٠/١٣٠ ط: دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، الطبعة الأولى١٤١١هـ ١٩٩٠م

ولبابُ التوجيه أنّ في العدول إلى الاسم الظاهر توصلاً إلى وصف (الرسول) - لا غيره من الأوصاف- إذ إنّ جريرتهم لم تكن متعلقة به صلى الله عليه وسلم من حيث شخصه أو ذاتُه؛ إنما كان لوصفه (الرسول)، وتأمل الآيات قبلها: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا } [النساء: ٦٠، ٦١]

إنهم صدوا عن وصْف الرسول، لا شخْص الرسول! تأمل: { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ} وما قيل: (إلى ما أنزل الله وإليك) جريًا على سَنَن الكلام قبله؛ إنما أظهر الوصف؛ فهو الذي وقع عليه الصدّ، فلزامًا يُظهر ليكون له التندُّم، ومنه الاستغفار!!

" ولو أنهم اعتدوا في معصيتهم على حقوقه الشخصية كأكل شيء من ماله بغير حق لقال: واستغفرت لهم، فإن التوبة عن المعاصي المتعلقة بحقوق الناس لا تكون مقبولة ولا صحيحة إلا بعد استرضاء صاحب الحق" (١)، قال البقاعي:" {وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ} أي ما فرطوا بعصيانه فيما استحقه عليهم من الطاعة" (٢)؛ ومن ثم أوجب ذلك العدول إلى الوصف الذي وقع عليه حَيفهم وظلمهم.

من ناحية أخرى ترى لفظ (الرسول) مشتقًا من الإرسال بمعنى

---

(١) المنار ١٩٠/٥ ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر ١٩٩٠م.

(٢) نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور للإمام البقاعي٣١٦/٥، طبعة: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

التوجيه(١)؛ فهو مرسل وموجَّه من قِبل الله؛ يُطلعه ربه على كل شيء؛ ففيه إلماح إلى درايته صلى الله عليه وسلم وعلمه بما يسرون ويبطنون! فليس غائبًا عنه حالُهم ، فزامًا عليهم الرجوع إليه، وطلب الاستغفار منه؛ حتى يصفح عنهم، ويدعو الله لهم بالعفو والصفح.

قلتُ: ولعلّ هذا يرجع إليه سرٌّ غلبة هذا الوصف وتَناديه عند الحديث عن أحوال المنافقين؛ حتى شكّل ظاهرةً قرآنية تسترعي الانتباه، وتستدعي التأمل والوقوف أمامها، فمتى كان الحديث عن أحوال المنافقين، وأساليب نفاقهم، وتلوّن خداعهم ترى إيثار وصف (الرسول) على غيره عدولا به عن الضمير. تُبصر هذه الظاهرة تتكشف جليّةً في آيات سورة التوبة، وهي سورةٌ معقودة في المقام الأول لفضح المنافقين، وهتك سريرتهم.(٢)

بانَ من خلال ذلك عدم وفاء توجيه جار الله – طيّب الله ثراه- بحاجة السياق، ولو أنه جرى فيه بمثل ما جادَ به (٣) في قوله سبحانه: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [الأعراف: ١٥٨] لأروى وأشفى!

---

(١) ينظر: تاج العروس من جواهر القاموس للزَّبيدي٢٩/ ٧٢، طبعة: دار الهداية د.ت.

(٢) ينظر: مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور للإمام البقاعى، قدم له وحقق عليه، وخرج أحاديثه الدكتور/ عبد السميع محمد أحمد حسنين ٢/١٥٤ ط: مكتبة المعارف، الرياض، ط: الأولى ١٤٠٨هـ ١٩٨٧م. الظلال ٣/ ١٥٦٧ ط: دار المعارف ط: السابعة عشر١٤١٢هـ. وانظر الآيات في سورة التوبة: ٥٨، ٥٩ – ٦١، ٦٢، ٦٣ – ٨٠، ٨١ – ٨٥، ٨٦

(٣) ينظر: الكشاف ٢/١٢٣

## الأسلوب الحكيم

عرّفه البلاغيون بقولهم: " هو تلقي المخاطب بغير ما يترقب بحمل كلامه على خلاف مراده، تنبيها على أنه الأولى بالقصد، أو السائل بغير ما يتطلب بتنزيل سؤاله منزلة غيره، تنبيها على أنه الأولى بحاله
أو المهم له."(١)

واستشهدوا على النوع الثاني منه بقوله سبحانه: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾[البقرة: ٢١٥] قال السكاكي: " سألوا عن بيان ما ينفقون فأجيبوا ببيان المصرف، ينزل سؤال السائل منزلة سؤال غير سؤاله لتوخي التنبيه له بألطف وجه على تعديه عن موضع سؤال هو أليق بحاله أن يسأل عنه، أو أهم له إذا تأمل. "(٢)

وبعد الوقوف على التّوجيهات في الآية لاحَ لي أنّ توجيه السكاكي للجواب بأنه جارٍ على طريقة الأسلوب الحكيم ما كاد يفارق جُلّ مصنفات رجالات البيان(٣)؛ خلافًا لصنيع المفسرين فجُلُّهم على أنّ الجواب مطابقٌ للسؤال ليس بمعزل عنه، وليس فيه ارتكابٌ لهذا الأسلوب!(٤)

---

(١) الإيضاح ١/ ٢/ ٩٤

(٢) مفتاح العلوم ص ٣٢٧

(٣) ينظر: الإيضاح١/٢/٩٥، شروح التلخيص١/٤٨٣، المطول١٣٦، خصائص التراكيب ص٢٧١

(٤) ينظر: تفسير الطبري تح: شاكر٤/٢٩١، ط: مؤسسة الرسالة، ط: الأولى١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م. الكشاف١/٣٥٦، المحرر الوجيز المحرر الوجيز لابن عطية تح:عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، السيد عبد العال السيد إبراهيم٢/٢١٥ طبعة: دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الثانية د. ت، البحر المحيط٢/٢٢٩، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون لأحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي تح: أحمد محمد الخراط٢/٣٨٥، طبعة: دار القلم، دمشق د. ت. التفسير الكبير٣/٦/٢١، حاشية الشهاب٢/٣٠٠ ط: دار صادر، بيروت د.ت. التحرير والتنوير٢/ ٣١٧، المنار٢/٢٤٦

والقولُ عندي ما قالَ المفسرون! بيدَ أنّ توجيهاتِهم تنوعت وتعددت في بيان كيفية مطابقة الجواب للسؤال؛ فجاءت في أربعة أوجه، أنورُها وأعلاها – فيما أحسب – وجهان:

**الأول: مطابقة السؤال الجواب دون زيادة أو نقصان:**

جاء الجواب مطابقا للسؤال دون زيادة عليه أو نقصان عنه؛ فقوله سبحانه: ﴿ مَاذَا يُنْفِقُونَ﴾ سؤال عن المنفَق والمنفَق عليه، وجاء الجواب عليهما معًا؛ فالجواب على المنفَق في قوله سبحانه: ﴿مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾، وعن المنفَق عليه في قوله: ﴿فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾؛ قال الطبريّ – رحمه الله– " يعني بذلك جل ثناؤه: يسألك أصحابك يا محمد، أيَّ شيء ينفقون من أموالهم فيتصدقون به؟ وعلى من ينفقونه فيما ينفقونه ويتصدقون به؟ فقل لهم: ما أنفقتم من أموالكم وتصدقتم به، فأنفقوه وتصدقوا به واجعلوه لآبائكم وأمهاتكم وأقربيكم، ولليتامى منكم، والمساكين، وابن السبيل." (١)

وقد يكون في هذا التوجيه ما يوهم الإشكال! كيف تقع (ما) سؤالا عن الكيفيات؟ أليست أداةَ سؤال عن حقيقة الأشياء؟ قلتُ: قال الإمامُ الطاهر – رحمه الله– " ولا يريبكم في هذا أنّ السؤال هنا وقع بـــ(ما) وهي يُسأل بها عن الجنس لا عن العوارض، فإن ذلك اصطلاحٌ منطقي لتقريب ما ترجموه من تقسيمات مبنية على اللغة اليونانية وأخذ به السكاكي؛ لأنه يحفل باصطلاح أهل المنطق، وذلك لا يشهد له الاستعمال العربي." (٢)

قال الرازي:" وإن كان السؤال واردًا بلفظ ﴿مَا﴾ إلا أن المقصود: السؤال عن الكيفية لأنهم كانوا عالمين أن الذي أمروا به إنفاق مال

(١) تفسير الطبري٤/٢٩١

(٢) التحرير والتنوير٢/ ٣١٨

يخرج قربة إلى الله تعالى، وإذا كان هذا معلوما لم ينصرف الوهم إلى أن ذلك المال أي شيء هو؟ وإذا خرج هذا عن أن يكون مرادا تعين أن المطلوب بالسؤال أن مصرفه أي شيء هو؟ ... ونظيره قوله تعالى:﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا ... قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ﴾ [البقرة: ٧٠- ٧١] وإنما كان هذا الجواب موافقا لذلك السؤال، لأنه كان من المعلوم أن البقرة هي البهيمة التي شأنها وصفتها كذا، فقوله: ما هي لا يمكن حمله على طلب الماهيّة، فتعين أن يكون المراد منه طلب الصفة التي بها تتميز تلك البقرة عن غيرها، فبهذا الطريق قلنا: إن ذلك الجواب مطابق لذلك السؤال، فكذا هاهنا لما علمنا أنهم كانوا عالمين بأن الذي أمروا بإنفاقه ما هو، وجب أن يقطع بأن مرادهم من قولهم: ماذا ينفقون ليس هو طلب الماهية، بل طلب المصرف فلهذا حسن الجواب." (١)

**الآخر: مطابقة الجواب السؤال والزيادة عليه:**

وذلك إذا سلمنا بالقول: إن الاستفهام بـــ(ما) قاصرٌ على السؤال عن حقيقة الشيء، لا ينهض للسؤال عن كيفيته؛ فالجواب عن الحقيقة جاء نصًّا في قوله سبحانه: ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ قال الشهاب – معترضا على حمل السكاكي الجواب على الأسلوب الحكيم – " ولا وجهَ لأنّ قوله: ﴿مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾ ذكرٌ له، لكنه لما كان لا حدّ له أجمل أي كل حلال أنفقتموه قليلاً أو كثيرا خير "(٢)؛ ومن ثم عبر بلفظ (الخير) عن (المال) تنبيهًا على أن الذي يجوز إنفاقه هو المال الذي تناوله اسم الخير.(٣)

وبذا استوفى الجواب السؤال، ثم زاد عليه بما فيه نفعٌ لهم تكميلا

(١) التفسير الكبير٢١/٦/٣

(٢) حاشيه الشهاب٣٠٠/٢

(٣) المفردات للراغب الأصفهاني تح: صفوان عدنان الداودي ص٣٠٠ ط: دار القلم، الدار الشامية، دمشق بيروت ط: الأولى١٤١٢هـــ.

للفائدة في قوله: ﴿فَلِلْوالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتامى وَالْمَساكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾؛ فقد " كانوا في الجاهلية ينفقون على الأهل وعلى الندامى وينفقون في الميسر، يقولون فلان يتمم أيساره أي يدفع عن أيساره أقساطهم من مال المقامرة ويتفاخرون بإتلاف المال... فجاء ببيان مصارف الإنفاق الحق. "(١)

ورحم الله جار الله : " فإن قلتَ : كيف طابق الجواب السؤال في قوله: ﴿قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ﴾ وهم قد سألوا عن بيان ما ينفقون وأجيبوا ببيان المصرف؟ قلت: قد تضمن قوله: ﴿مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾ بيان ما ينفقونه وهو كل خير وبنى الكلام على ما هو أهم وهو بيان المصرف ؛ لأن النفقة لا يعتد بها إلا أن تقع موقعها . قال الشاعر :

**إن الصنيعة لا تكون صنيعة ... حتى يصاب بها طريق المصنع** "(٢)

وعلى هذا التوجيه تكون الآية من قبيل الفن البديعي (التلفيف) وهو أن يقصد المتكلم التعبير عن معنى خطر له أو سُئل عنه، فيلف معه معنى آخر يلازم كلمة المعنى الذي سئل عنه، كقول الله – تعالى- مخبراً عن موسى –عليه السلام– وقد قال سبحانه له: {وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَامُوسَى (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى (١٨)} [طه: ١٧، ١٨]، وكقول الرسول – عليه السلام – وقد سُئل عن البحر في حديث أوله: إنا نركب البحر، فحواه السؤال عن ماء البحر هلا تجوز به الطهارة؟ فقال: هو الطهور ماؤه، الحل ميتته.(٣)

بقي القولُ: إنّ أبا حيان حمل السؤال والجواب على أسلوب

(١) التحرير والتنوير بتصرف٢/ ٣١٧

(٢) الكشاف ١/٣٥٦

(٣) تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر تح: الدكتور حفني محمد شرف ص: ٣٤٣ ط: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

الاحتباك؛ قال:" حُذف من الأول الذي هو السؤال المصرف، ومن الثاني الذي هو الجواب ذكر المنفق، وكلاهما مراد، وإن كان محذوفا، وهو نوع من البلاغة تقدم نظيره في قوله: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ﴾ "[1] وهذا التخريجُ أحسبه بعيدًا ناضبًا؛ لأن مبنى الاحتباك على " أن يُحذف من الأول ما أثبت نظيره في الثاني ، ومن الثاني ما أثبت نظيره في الأول"[2]، وبانَ من التخريجين السابقين أن (المنفَق، والمنفق عليه) موجودان في الوجه الأول سؤالا وجوابا، ومذكوران معًا في الجواب على الوجه الثاني.

كذلك حمل التطابق بين السؤال والجواب مراعاةً لما ورد من سبب النزول؛ فيما رواه الواحدي عن ابن عباس قال: نزلت في عمرو بن الجموح الأنصاري وكان شيخا كبيرا ذا مال كثير، فقال: يا رسول الله بماذا يتصدق؟ وعلى من ينفق؟ فنزلت هذه الآية "[3]، قال السبكي: " فعلى هذا ليست هذه الآية مما نحن فيه، لأن السائل لم يتلق بغير ما يتطلب بل أجيب عن بعض ما سأل عنه."[4] كان من الممكن أن يكون سببًا كافيا للقول بتطابق السؤال والجواب؛ لكن الرواية ضعيفة؛ لأنها جاءت عن ابن عباس من طريق أبي صالح.[5]

(١) البحر المحيط ٢٢٩/٢

(٢) الإتقان في علوم القرآن٣/٢٠٤

(٣) أسباب نزول القرآن للواحدي، تح: عصام بن عبد المحسن الحميدان ص٦٧ ط: دار الإصلاح، الدمام، ط: الثانية ١٤١٢هـــ ١٩٩٢م

(٤) عروس الأفراح ٤٨٣/١، ٤٨٤ وهو ما اعتمد عليه د. محمد عبدالمنعم خفاجي؛ يقول:" رواية سبب النزول أنهم سألوا عنه وعن المصرف فلا تكون الآية على هذا من تلقي السائل بغير ما يتطلب." تحقيق الإيضاح حاشية رقْم (٤) ١/٥/٩٥.

(٥) وأبو صالح لم يرَ ابن عباس. ينظر: السلسلة الضعيفة للألباني (٢٢٩/١)، وأسباب النزول للواحدي ص٦٧

## المطلب الثاني: ( مراجعات في شواهد المسند )

### حـــذف المسند

ذكر البلاغيون أنّ المسند يُحذف لنكات وأغراض بيانية؛ منها:" الاختصار والاحتراز عن العبث بناءً على الظاهر؛ إما مع ضيق المقام...، وإما بدون الضيق؛ كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢] على وجه، أي والله أحق أن يرضوه، ورسوله كذلك، ويجوز أن يكون جملة واحدة وتوحيد الضمير لأنه لا تفاوت بين رضا الله ورضا رسوله، فكانا في حكم مرضي واحد." (١)

والكلامُ على التوجيه الأول؛ فهو المعتَمد عند البلاغيين، والأصل عندهم في الاستشهاد والتأويل! ومن ثم أتَوا بالآية في أغراض حذف المسند؛ قال السبكي: " ومن ذلك – يعني حذف المسند– ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ﴾ على المشهور."(٢) ومن خلاله أصبح الكلام جملتين، لا جملة واحدة، حُذف من الأولى ما دلّ عليه في الثانية اختصار وإيجازًا!! فالأصل: فالله أحق أن يرضوه، ورسوله أحق أن يرضوه.

وهذا المعتمَد عندهم أحسبه شاحبًا لا ظلّ له؛ إذ إنه لا ينهض بالوفاء بحاجة المقام، ومتطلبات السياق؛ إذ يقف الحذف فيه – الذي هو قِلادةُ الجِيد، وقاعدةُ التَّجويد!(٣) – مُتحجرًا عند دلالة الاختصار والاحتراز! وهي دلالة لا تكشف عن المغزى بقدر ما تصلح لأن تكون لكل الحذوف! وقد أحسّ الشيخ عبد المتعال الصعيدي بالحرج في مجيء

(١) الإيضاح بتصرف وحذف ١٠٤/٢/١

(٢) عروس الأفراح ٨/٢

(٣) دلائل الإعجاز ص ١٥١

البلاغيين بالآية شاهدًا في هذا الموضع؛ فقال: " كان الأحسن أن يذكر هذا الغرض في أول الأغراض ليجعله مطردًا في جميعها كما صنع في حذف المسند إليه."(١)

وأحسبُ أنّ الأعلى في سماء البيان القرآني – ويكون الأولى توجيهًا واستشهادًا – أن يُجعل الكلام جملة واحدة لا جملتين، وأن الأصل أن يُقال – في غير القرآن – (والله ورسوله أحق أن يرضوهما) فعدل عن التثنية، واكتفي بذكر أحدهما ووحّد الضمير، فـــ " إنْ عاد إلى الله، فإرضاؤه لا يكون إلا بإرضاء الرسول، وإن عاد إلى الرسول فإنه لا يكون إرضاؤه إلا بإرضاء الله، فلما كان إرضاؤهما لا يحصل أحدهما إلا مع الآخر، وهما يحصلان بشيء واحد، والمقصود بالقصد الأول إرضاء الله وإرضاء الرسول تابع، وحد الضمير في قوله: ﴿أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ﴾ ، وكذلك وحد الضمير في قوله: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة:٤٠]؛ لأن نزول ذلك على أحدهما يستلزم مشاركة الآخر له " (٢)، فالجهة غير منفكة؛ ليستا جهتين كل واحدة تحتاج لإرضاء! إنما هي جهة واحدة، " كقولك: إحسان زيد وإجماله نعشني وجبر منى. " (٣)

وهذا الأسلوب جارٍ عند العرب، أصيلٌ في كلامهم، ذكره الثعالبي في فقه اللغة، وعقد له فصلا بعنوان: (الجمع بين شيئين اثنين، ثم ذكر أحدهما في الكناية دون الآخر، والمراد به كلامهما معا)، قال فيه: " من

(١) بغية الإيضاح ١/١/١٥٥

(٢) منهاج السنة النبوية لابن تيمية تح: محمد رشاد سالم٨/٤٩١ الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ط: الأولى ١٤٠٦هـــ ١٩٨٦م

(٣) الكشاف٢/١٩٩

سنن العرب أن تقول : رأيت عمرًا وزيدًا، وسلّمت عليه أي عليهما؛ قال الله عزّ وجلّ: ﴿والذين يُكْنِزونَ الذَّهَبَ والفِضَةَ ولا يُنْفِقونَها في سبيل الله﴾ وتقدير الكلام: ولا ينفقونهما في سبيل الله وقال تعالى: ﴿وإذا رَأوا تِجارَةً أو لهواً انْفَضُوا إليها﴾ وتقديره: انفضوا إليهما. وقال جلّ جلاله: ﴿ وَاللّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ﴾ والمراد: أن يرضوهما " (١)

وعندي أن يدخل هذا اللون من التعبير تحت المصطلح البديعي (الاكتفاء) ويكون نوعًا منه؛ جاء في أنوار الربيع أنّ الاكتفاء يكون على نوعين: نوع يكون بكلمة فأكثر، ونوع يكون ببعض كلمة. وعرفه بقوله: " أن يقتضي المقام ذكر شيئين بينهما تلازم وارتباط، فيكتفي بأحدهما عن الآخر لنكتة" (٢) فلمَ لا يكون الاكتفاء بين الضمائر نوعًا ثالثًا له؟

وإذا أمعنت النظر ألفيت دلالة المصطلح تلتقي وسياق الآية؛ فهي حديث عن أخبث فئة ظهرت في تاريخ الدعوة؛ فئة النفاق، فمن الأحرى أن يكون في الكلام ما يعقلون به مدى التلازم والترابط بين رضا الله – الذي يعلم السر وأخفى– ورضا رسوله -ﷺ- فيكون تنبيهًا لنفوسهم الخبيثة، وإيقاظًا لقلوبهم الغافلة، كي ينخلعوا عن الأيمان الكاذبة، والادعاءات الجوفاء الفارغة إلى الإيمان الصادق والدين القويم.

ويُخيَّلُ إليَّ أنّ ما جعَل البلاغيين يَعزفون عن هذا التوجيهِ، ولا يجعلونه رأسًا عندهم، وإذا أوردوه أتَوا به على صيغة التمريض؛ كما

(١) فقه اللغة وسر العربية للثعالبي، تح: عبد الرزاق المهدي ص٢٢٦، ط: إحياء التراث العربي، الطبعة: الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ ٢٠٠٢م.

(٢) أنوار الربيع في أنواع البديع تح: شاكر هادي شكر٣/٧١، مطبعة النعمان، العراق، الطبعة الأولى.

عند السبكي:" وقيل: أفرد الضمير؛ لأنّ رضا الله تعالى ورضا رسوله واحد " [1] ما هجسَ في صدورهم من أنه لا يجوز الجمع بين اسم الله واسم رسوله في ضمير تثنية؛ كما ورد أن رجلاً خطب عند النبي -ﷺ- فقال: " من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى "، فقال رسول الله – ﷺ-: « بئس الخطيب أنت، قل: ومن يعص الله ورسوله. » [2]

والحقيقةُ أنّ النهيَ ليس على جملته وإطلاقه؛ وإنما هو معلولٌ بعلة، وقد ورد الجمعُ بين الضميرين صريحًا في القرآن والحديث، وعليه استقرّ كلام المفسرين والشُّراح. [3]

(١) عروس الأفراح ٢/٨

(٢) صحيح مسلم تح : محمد فؤاد عبد الباقي (٨٧٠) ٢/٥٩٤ ط: دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت.

(٣) من هذه المواضع التي ورد فيها صريح الجمع بين الضميرين: ما جاء في قوله صلى الله عليه وسلم: « ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا...» صحيح البخاري(١٦) ١/١٠ ط: دار الشعب، القاهرة، ط: الأولى١٤٠٧هـ ١٩٨٧م، صحيح مسلم (٤٣)١/٦٦، وما ورد أنّ منادي النبي صلى الله عليه وسلم نادى: « إن الله ورسوله ينهيانكم عن لحوم الحمر الأهلية فإنها رجس» صحيح البخاري(٢٩٩١)٤/٦٩، صحيح مسلم(١٩٤٠)٣/١٥٤٠، وما ثبت عن ابن مسعود – رضي الله عنه – قال: « علمنا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – خطبة الحاجة: إن الحمد لله، نستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أرسله بالحق بشيرًا ونذيرًا بين يدي الساعة. من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فإنه لا يضر إلا نفسه، ولا يضر الله شيئًا» صحيح مسلم (٨٧٠)٢/٥٩٤، كذلك جاء الجمع بين الضمير الراجع إلى الله والملائكة في قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ...**﴾ [الأحزاب: ٥٦] يقول الشوكاني: " الضمير في قوله: ﴿**يُصَلُّونَ**﴾ راجع إلى الله، وإلى الملائكة، وفيه تشريف للملائكة عظيمٌ؛ حيث جعل الضمير لهم ولله سبحانه واحدا... والآية مؤيدة للْجواز؛ لجعل الضمير فيها لله ولملائكته واحدا، والتعليل بالتشريف للملائكة يقال مثله في رسول الله صلى الله عليه وسلم. " فتح القدير ٤/ ٣٤٥

*وقد جمع المفسرون، وشرّاحُ الحديث بين ثبوت الجمع، ونهيه صلى الله عليه وسلم بأمور منها؛ أولا: أنّ ذمّ الخطيب على أنه فُهم منه معنى التسوية بين الله سبحانه، وبين رسوله؛ فيختص المنع بمثل ذلك. ثانيًا: شأن الخطب البسط والإيضاح، واجتناب الإشارات والرموز، ولهذا ثبت في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثًا ليُفهم، وإنما ثنّى الضمير في قوله صلى الله عليه وسلم " أن يكون الله ورسوله أحب إليه=

ومما استشهدَ البلاغيون به لحذف المسند اختصارًا " قولُه تعالى: {قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي} [الإسراء:١٠٠] تقديره: (لو تملكون تملكون) مكررًا لفائدة التوكيد، فأضمر (تملك) الأول إضمارًا على شريطة التفسير، وأُبدل من الضمير المتصل الذي هو الواو ضمير منفصل وهو (أنتم) لسقوط ما يتصل به من اللفظ، فـ{أَنْتُمْ} فاعل الفعل المضمر، و{تَمْلِكُونَ} تفسيره.

قال الزمخشري هذا ما يقتضيه علمُ الإعراب، فأما ما يقتضيه علم البيان، فهو أن {أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ} فيه دلالة على الاختصاص، وأن الناس هم المختصون بالشح المتبالغ. ونحوُه قولُ حاتم: ( لو ذات سوار لطمتني)، وقول المتلمس:

**ولو غيرُ إخواني أرادوا نَقيصتي ... جعلتُ لهم فوق العرانين مِيسما**

وذلك لأن الفعل الأول لما سقط لأجل المفسر برز الكلام في صورة المبتدأ والخبر." (١)

= مما سواهما " لأنه ليس خطبة وعظ، وإنما هو تعليم حكم، فكلما قلّ لفظه كان أقرب إلى حفظه، بخلاف خطبة الوعظ؛ فإنه ليس المراد حفظه، وإنما يراد الاتعاظ بها. ثالثًا: إنما قاله لأن الخطيب وقف على «ومن يعصهما» وسكت سكتة، وعليه يفسد المعنى. رابعًا: قال ابن حجر: " ومن محاسن الأجوبة في الجمع بين حديث الباب [أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما] وقصة الخطيب أن تثنية الضمير هنا للإيماء إلى أن المعتبر هو المجموع المركب من المحبتين لا كل واحدة منهما فإنها وحدها لاغية إذا لم ترتبط بالأخرى فمن يدعي حب الله مثلا ولا يحب رسوله لا ينفعه ذلك... وأما أمر الخطيب بالإفراد فلأن كل واحد من العصيانين مستقل باستلزام الغواية إذ العطف في تقدير التكرير، والأصل استقلال كل من المعطوفين في الحكم." فتح الباري١/ ٦٢ ، وانظر: المحرر الوجيز ٦/٥٥٠، روح المعاني تح: علي عبد الباري عطية ٥/١٠/٣١٧ ط: دار الكتب العلمية – بيروت، ط: الأولى ١٤١٥هـ. فتح الباري١/٦١، شرح النووي على صحيح مسلم ٦/١٥٩

(١) الإيضاح ١/٢/١٠٥، ١٠٦، وانظر: مفتاح العلوم ص٢٢٥، شروح التلخيص٢/٩، الطراز٣/١٥٢.

نصٌّ الخطيب يحوي ثلاثة شواهد، تُمثل ظاهرةً واحدة، أورد لها توجيهين:

الأول: أنّ الكلام على حذف المسند (الفعل)، وهذا القولُ ينهج فيه نهج النحاة، ويتْبَع آثارهم! فالقولُ أصالةً لهم، يستظلّون به، ويفزعون إليه من أجل اطراد القاعدة واستقامتها! فــ(لو) "مثل (إنْ) الشرطية، في الاختصاص بالفعل، فلا يليها إلا فعل، أو معمول فعل مضمر، يفسره ظاهر بعده." (١)، وهو توجيه -فيما يبدو- آنسَ قبولا عند البلاغيين لبداءتهم به، ووضع الآية شاهدًا في حذف المسند.

الآخر: أنّ الكلام على تقديم المسند إليه لإفادة الاختصاص، وهو ما ارتضاه جار الله (٢)، لكنه -فيما أحسب- لم يلقَ حَظوةً عندهم في التوجيه كسابقه!

وما أبعدَ النحاة -ومن ارتضى قولهم- عن مَقال حَذامِ! وتصريفُ أسلوب القرآن شاهدٌ على ذلك؛ فكما يجيء الفعل بعد الأداة، كذلك يأتي الاسمُ بعدها؛ فلم يمشِ على سَنن الفعل وحدَه، إنما مشَى على سَنن

(١) الجنى الداني في حروف المعاني للمرادي تح: د/ فخر الدين قباوة، أ/ محمد نديم فاضل ص٢٧٨ ط: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ط: الأولى١٤١٣هــ ١٩٩٢م. وهذا قول جمهور النحاة؛ يمنعون وقوع الاسم بعد (لو)، وإذا وقع فهو مرفوع بفعل مضمر، والكوفيون يجيزون تقديم الفاعل على فعله. وقال الزجاجي: "وقد يجوز في غير مذهب سيبويه رفعه بالابتداء" اللامات للزجاجي ص١٢٧ تح: مازن المبارك، ط: دار الفكر – دمشق، ط: الثانية ١٩٨٥م. وإذا باشرتها (أنّ) فهي في موضع رفع بالابتداء عند سيبويه. ينظر: الكتاب لسيبويه ١٩٣/٣ تح: عبد السلام محمد هارون، طبعة: مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة: الثالثة ١٤٠٨ هــ ١٩٨٨م. والمغني٢٦٩/١ وقال ابن مالك: " على أنه قد ولي ( لو) اسم صريح مرفوع بالابتداء في قول الشاعر: **لو بغير الماء حلقي** ... ولذلك وجه من النظر؛ وهو أن (لو) لما لم تصحب -غالبًا- إلا فعلا ماضيا، وهو لازم البناء لم تكن عاملة. ولما لم تكن عاملة لم يسلك بها سبيل "إن" في الاختصاص بالفعل أبدًا. فنبه على ذلك بمباشرتها "أن" كثيرا، وبمباشرة غيرها قليلا. " شرح الكافية الشافية ١٦٣٦/٢

(٢) ينظر: الكشاف ٢/ ٤٦٨

مقصود الكلام؛ فهو وحدَه له حقٌّ الاختيار والاصطفاء بين مجيء الفعل وتقديم الاسم.

استجلاءُ الحقيقة يكشف عن المغزى الذي دعاهم إلى القول بتكرير الفعلين، وهو إيغالهم في تمرير القاعدة، بتقديمهم مقتضيات الصنعة على طبيعة المعنى؛ ومن ثم فإنّ مُختارَهم غير مختار! وإلا لَما كان للتقديم فائدةٌ ومعنًى، ويكون مجيء الكلام على التقديم مستويًا مع غيره؛ كما لو قيل -في غير القرآن- ( قل لو تملكون خزائن..). كذلك لو جاء الكلام على أصله دون تقديم؛ كما في قوله تعالى: {وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ...} [الأنفال:٥٠] تكون الدلالة واحدة لو قيل: ( ولو أنت ترى..)؟!

والقولُ عند رجالاتِ البيان: إن المقدَّم هو الذي يكون عليه حركةُ المعنى؛ " كأنّهم إنَّما يقدّمون الذي بيانه أهم لهم، وهم ببيانه أعنى" (١)، ومناط التخويف والفزع كامنٌ في رؤية هذا المشهد المهيب؛ صورةِ الكافرين والملائكة تستلّ منهم أرواحهم في مشهد مهين...!(٢) فتقدّم فعلُ الرؤية، ولا يستطيع الضميرُ تقدمًا؛ فليس عليه قصدُ الحديث!

في المقابل حضورُ المشركين سافرٌ مكشوف في آيات سورة الإسراء، عليه نياط القول؛ فالسياق معقودٌ لبيان مقترحاتهم من أجل الإيمان! ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالمَلائِكَةِ قَبِيلا * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ...﴾ [الإسراء٩٠: ٩٣]

(١) الكتاب١/ ٣٤، وانظر: دلائل الإعجاز ص١٠٧

(٢) ينظر: الظلال ٤٢٢/٣

فجاء قوله سبحانه: {قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي} أي أولئك الذين يقترحون عليك تلك المقترحات المتعنتة، من بيوت الزخرف، وجنات النخيل والأعناب، والينابيع المتفجرة... بُخلاء أشحاء، حتى لو أنّ رحمة الله قد وُكلت إليهم خزائنها لأمسكوا وبخلوا خوفاً من نفادها. (١)

فمدارُ الحديث عنهم ردًّا على مقترحاتهم؛ فكان تقديم ضميرهم عناية واهتمامًا، ويمكن حمله على معنى " الاختصاص، بناءً على أنه ما قدّم الفاعل من مكانه إلا لمقصد طريق غير مطروق. وهذا الاعتبار هو الذي يتعين التخريج عليه في هذه الآية ونحوها من الكلام البليغ... والمعنى: لو أنتم اختصصتم بملك خزائن رحمة الله دون الله لما أنفقتم على الفقراء شيئا. وذلك أشد في التقريع، وفي الامتنان بتخييل أن إنعام غيره كالعدم." (٢)

وعلى أيٍّ؛ فالكلام جارٍ عليهم، فكان تقديمُ ضميرهم، ولا منازعةَ فيما أنتجَه فالمعنيان يتحملهما السياق، لكنه ليس ثمة داعٍ لصرف الأسلوب عن أصل الوضع، والاعتصام بتقدير محذوف سعيًا وراء الصنعة؛ بعيدًا عن نصاعة الأسلوب، وروح المعنى؛ فـ " التراجح بين أقوال النحاة يجب أن يكون على أساس المعنى قبل كل شيء، فالمعنى هو الرائد والحكم. وإذا دار الأمر بين مقتضيات المعنى ومقتضيات الصناعة النحوية التزمنا الأولى دون الثانية." (٣)

---

(١) السابق ٤٦/٥

(٢) التحرير والتنوير١٥/ ٢٢٣

(٣) المعنى والإعراب عند النحويين ونظرية العامل د. عبدالعزيز عبده أبوعبدالله ص٩ منشورات الكتاب والتوزيع والإعلان والمطابع، طرابلس ط: الأولى ١٣١٩هـ ١٩٨٢م

كذلك في قول حاتم: ( لو ذاتُ سوار لطمتني)(١)، أورده ابن سلام تحت " باب الكريم يظلمه الدنيء الخسيس، وما يؤمر به من دفعه عنه" (٢)، وذكر الميدانيُّ أن المثل يساق، و" يُضرَب للكريم يظلمه دنيء، فلا يقدر على احتمال ظلمه." (٣)

قلتُ: التبويبُ ومساق المثل ما هما في الحقيقة إلا توجيهٌ لمغزى تقديم الفاعل على فعله؛ فهو محل الاستغراب؛ وتأمل قول الإمام: " فإنْ كان رجلٌ ليس له بأسٌ ولا يقدر فيه أنه يَقتل، فقتل رجلا، وأراد المخبِرُ أن يُخبر بذلك، فإنّ يقدم ذكر القاتل...، ذاك لأنّ الذي يَعنيه ويعني الناس من شأن هذا القتل، طرافته وموضع الندرة فيه، وبعده كان من الظن. ومعلوم أنه لم يكن نادرا وبعيدا من حيث كان واقعا بالذي وقع به، ولكن من حيث كان واقعًا من الذي وقعَ منه." (٤)

أما قولُ المتلمس:

**ولو غيرُ إخواني أرادوا نقيصتي ... جعلتُ لهمْ فوق العرانين مِيسما(٥)**

---

(١) كنى بالسوار عن الحُرّة، فجعل السوار علامة لها؛ لأن العرب قلما تُلْبِسُ الإماء السِّوَار، فهو يقول: لو كانت اللاطمة حرة لكان أخف عليّ. مجمع الأمثال للميداني ١٧٤/٢، ط: دار المعرفة، بيروت، لبنان،

(٢) الأمثال لابن سلام تح: د.عبد المجيد قطامش ص٢٦٨ ط: دار المأمون للتراث ط: الأولى١٤٠٠هـ ١٩٨٠م

(٣) مجمع الأمثال ٢/ ١٧٤

(٤) دلائل الإعجاز ص ١٠٩

(٥) ديوان شعر المتلمس الضبعي. عُني بتحقيقه، وشرحه، والتعليق عليه: حسن كامل الصيرفي ص٢٩ ط: جامعة الدول العربية، معهد المخطوطات العربية، ١٣٩٠هـ ١٩٧٠م. وكان المتلمس في أخواله من بني يَشْكُر، وُلد فيهم حتى كادوا يغلبون على نسبه. فسأل عمرو بن هند يومًا الحارثَ بن التوءم الْيَشْكُرِي عن نسبه، فقال: أونا يزعم أن من بني يشكر، وأونا يزعم أنه من بني ضُبيعة؛ فقال عمرو بن هند: ما أراه إلا كالساقط بين الفراشين، فبلغ ذلك المتلمس فقال هذه القصيدة التي منها بيت الاستشهاد. ينظر الديوان ص١٠.

فالروايةُ في الديوان والأصمعيات[1] (ولو غيرُ أخوالي)، وهي الأوفق بغرض القصيدة، وسياق الأبيات؛ فعمود المعنى قائمٌ على خاله (الحارث) الذي قال فيه هذه القالة! وتقديمُ المسند إليه؛ لأنه محل الدهشة والاستغراب، فإرادةُ النقيصة ليست محلا للاستغراب في ذاتها؛ إنما لصدورها ممن هو منهم، ممن عرضُهم عرضُه، وعرضُه عرضهم! فالأحرى بهم الدفاع والزود عنه، لا إلحاق النقيصة به! فمثل هذا الصدور صعب مركبه، غريب مرامه، أو كما قال شيخ الصنعة " القياسُ في مثله أن لا يكون." [2] أرأيتَ كيف ضاع هذا المعنى وتفلّت من بين يدي مَن قدّم الصنعة بعيدًا عن تلمس المعنى، وتبصُّر جوّ القصيد؟!

ولجار الله الزمخشري – طيب الله ثراه – كلامٌ عالٍ، تستبينُ منه لطافةَ حسّه، ودقة تنقيره؛ بترقُّبه منازل المعاني، والغوص في دسائسها هبوطًا وصعودًا، وذلك في طريقة صوغ الأسلوب مع الأداة (لو) وكيف أن تصريف الأساليب معها إعلامٌ عن ميزان دقيق لدرجات المعاني وفقًا لسياقاتها، وليس الأمرُ مقصورًا على صياغة واحدة، إذا خُولفت صُرِف الكلام إلى التأويل! يقول – فيما نقلَ عنه السيوطي – :" الفرق بين قولك: (لو جاءني زيد لكسوته)، (ولو زيد جاءني لكسوته)، (ولو أن زيدا جاءني لكسوته) أنّ القصد في الأول مجرد ربط الفعلين، وتعليق أحدهما بصاحبه لا غير من غير تعرض لمعنًى زائد على التعلق الساذج. وفي الثاني انضم إلى التعليق أحد معنيين إما نفي الشك والشبهة، وأن المذكور مكسوٌّ لا محالة، وإما بيان أنه هو المختص بذلك

(١) ينظر: الأصمعيات ص٢٤٥

(٢) دلائل الإعجاز ص١٣٤

دون غيره ... وفي الثالث مع ما في الثاني زيادة التأكيد الذي تعطيه " أنّ " وإشعار بأن زيدا كان حقُّه أن يجيء وأنه بتركه المجيء قد أغفل حظه ... فتأمل ذلك وخرِّج عليه ما وقع في القرآن من أحد الثلاثة." (١)

(١) الإتقان في علوم القرآن٢/ ٢٨٣

## الحذف بين المسند إليه والمسند

يقول الخطيب: " وأما قوله تعالى: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف: ١٨]، وقوله تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا﴾، وقوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ﴾ [النور: ٥٣] فكلٌّ منها يحتمل الأمرين: حذف المسند إليه، وحذف المسند، أي: فأمري صبر جميل، أو فصبر جميل أجمل. وهذه سورة أنزلناها أو فيما أوحينا إليك سورة أنزلناها. وأمركم أو الذي يطلب منك طاعة معروفة معلومة لا يشك فيها ولا يرتاب كطاعة الخلص من المؤمنين، الذين طابق باطن أمرهم ظاهره، لا أيمان تقسمون بها بأفواهكم وقلوبكم على خلافها، أو طاعتكم طاعة معروفة أي بأنها بالقول دون الفعل. أو طاعة معروفة أمثل وأولى بكم من هذه الأيمان الكاذبة." (١)

شواهدُ ثلاث أدارَ الخطيبُ الحذف فيها وقلّبَه بين (المسند إليه، والمسند) دون عُلُوٍّ لوجهٍ على آخر؛ إنما تساوت دلالة الحذف في كلٍّ من الثلاثة! وهذا الصنيعُ منه قائمٌ على اعتبار الصنعة؛ دون رمق السياق، أو الاهتداء به! وإلا فمن المُحال أن تتساوى المواطن الثلاثة في استواء الأمرين!

ومعلومٌ أن لكلٍّ من (المسند إليه، والمسند) معلمًا ينمازُ به عن الآخر، ومَهمّة تُسنَد إليه لا تكون للآخر، وذلك وفقًا للسياق، ومقتضيات الأحوال؛ يقول الشيخُ: " إنَّ المبتدأ لم يكُنْ مبتدأً؛ لأنه منطوقٌ به أولًا، ولا كان الخبر خبرًا لأنه مذكورٌ بَعْد المبتدأ، بل كان المبتدأُ مبتدأً لأنه مسندٌ إليه ومثبتٌ له المعنى، والخبرُ خبرًا لأنه مسندٌ

---

(١) الإيضاح في علوم البلاغة ٢/ ١٠٦

ومثبتٌ به المعنى." (١)

ومن استبطان كلام عبد القاهر يمكن إبرازُ الأَوْلَى حذفًا في قوله سبحانه: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾[يوسف: ١٨] من خلال هذا التساؤل: هل الكلام مُساقٌ للإخبار عن كُنه وشأن (الصبر الجميل)؛ فسياق الحوار معقودٌ عليه؛ ومن ثم هو عمدةُ الكلام! أم للإخبار عن شأن وحال يعقوب - عليه السلام - لمّا نزل به البلاء بفقدان يوسف؟ أو على حدّ تفسير الشيخ(٢): هل المراد أن نُثبت للصبر الجميل معنى، ونسنده إليه؛ أم لنثبتَ به معنى، ويُسند؟

ليس هناك ظلٌّ من ريب في أنّ الكلام معقودٌ للإخبار عن حال نبي الله يعقوب، لما جاءه أبناؤه بنعي يوسف؛ فيكون قوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ إخبارًا عن نفسه، وإعلامًا عن حاله إلى أيّ شيء يؤول أمره، ويُسلمه إليه إسلامه. وليس يُعقَل في ظلال هذا المشهد؛ فاجعة يعقوب بفقدان أحب الأبناء إليه أن يُصرَف قولُه للإخبار عن أنّ (الصبر الجميل أجمل) أترى في هذا التأويل وفاءً بالمقام، وصدقًا مع شعور الأب المكلوم؟! إنه لبعيدٌ كلَّ البعد عن حسّ المشهد ومرماه! إن ظلال الموقف تشهد للمسند إليه بالحذف، والإخبار عنه بخبر جاء مقيدًا ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾أي: لا جزع فيه ولا شكوى.

ثم إنّ هذا التأويلَ بالحذف يتناسق مع قراءة أُبَيّ: ﴿فَصَبْرًا جَمِيلًا﴾ (٣)

(١) دلائل الإعجاز ص١٨٩

(٢) السابق نفسه، والصفحة نفسها.

(٣) ينظر: المحرر الوجيز٧/٤٥٩، البحر المحيط ٥/٣٧٧

فـ" يكون كالآمر لنفسه بالصبر" [١]، " وذلك يكون على الإغراء، والمعنى: فاصبرى يا نفس صبرا جميلا" [٢]؛ فكأنّ قراءة النصب إعلامٌ بما أمر يعقوبُ - عليه السلام - به نفسَه، وقراءةَ الرفع إخبارٌ عما استقرت عليه نفسُه!

ثم إنك تلمسُ التأويل بحذف المسند إليه هو ما ثبَت عند أصحاب التفسير بالمأثور؛ قال الطبري: " وقوله: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ يقول: فصبري على ما فعلتم بي في أمر يوسف صبرٌ جميل، أو فهو صبر جميل."[٣]، كذلك وضَح عند أهل المعاني؛ قال الزجاج:"﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ مرفوع على ضربين: المعنى فشأني صبر جميل، والذي أعتقده صبرٌ جميل، ويجوز أن يكون على فصبري صبر جميلٌ "[٤]، تراهما ذكرا تأويلين لم يَخرجا عن كونهما للمسند إليه؛ إما إخبارٌ عن حاله وشأنه، أو إخبارٌ عن صفة صبره ونوعه، مع جلَل مصابه، وكلاهما مسند إلى ضمير يعقوب.

قال العلويّ: " وحذفُ الخبر وإن كان واردًا على جهة الكثرة، لكن حذف المبتدأ ههنا يكون أبلغ؛ لأن الآيةَ وردتْ في شأن يعقوب فلا بُدّ من أن يكون هناك اختصاصٌ به، فإذا كان تقديره: فأمرى صبر

(١) معاني القرآن للفراء تح: أحمد يوسف النجاتي، محمد علي النجار، عبد الفتاح إسماعيل شلبي، علي النجدي ناصف٢/ ٣٩ ، طبعة دار الكتب والوثائق المصرية، ط: الثالثة ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠٢م.

(٢) أمالي المرتضى تح: محمد أبو الفضل إبراهيم١/ ١٠٧ ط: دار إحياء الكتب العربية (عيسى البابي الحلبي) ط: الأولى١٣٧٣ هـ ١٩٥٤ م

(٣) تفسير الطبري (١٥/ ٥٨٤)

(٤) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٣/ ٩٦)، وانظر: معاني القرآن للفراء٢/ ٣٩

جميل كان أخصَّ به، وأدخلَ في احتماله للصبر واختصاصه به." (١)

ثم إنّك تُبصر الكلمة نفسَها جاءت على لسان يعقوب لما رُفع إليه ما جرى على (بنيامين)، وأنه أُخِذ بجُرم السرقة؛ فكان جوابه عليهم: ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا...﴾ [يوسف:٨٣] والبلاغيون لم يتعرضوا لهذا الموضع، والقولُ فيه: إن كلمةَ يعقوب - عليه السلام - وإن كانت هي نفسُها التي سبقت، لكن تبقى خصوصيةُ المقام تُضفي عليها مزيدًا من الدلالة؛ ففيها من التوجيه ما سبق في الموضع الأول؛ بيد أنّي أُرمُق من السياق الزمني وجهًا آخر في التأويل بحذف المسند؛ منطلقُه من "أنّ الإخبارَ يجبُ أن يكون عمّا يُعرَف بما لا يُعرف" (٢)، ويعقوب عُرف عنه جميل الصبر في فقدان يوسف سنين عددًا، وتوطنت عليه نفسه؛ حتى سارتْ بذكره الركبانُ؛ ومن ثم أمكن الإخبار عما هو معروف عنه (الصبر الجميل) بأنه معه باقٍ، وأنه الأولى والأمثل.

والموضع الثاني الذي أدار الخطيب فيه الحذفَ بين (المسند إليه، أو المسند) قوله تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا..﴾ [النور:١]، والآيةُ مطلع سورة النور؛ ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النور:١] وأحسب أنّ حمْل الحذف فيها على الوجهين يحتاج إلى تمهل، وإرجاع بصر! لا سيما وأنّ الحذف استهلّت به السورة، ومعلومٌ أنّ " لكلِّ سورة من سور القرآن الكريم ... مفتتحًا من الآي يكون

(١) الطراز ١١٨/٢، وانظر: البرهان في علوم القرآن ١٤٣/٣، عروس الأفراح ١٢/٢

(٢) نهاية الإيجاز للرازي تح: بكري شيخ أمين ص١٦٢، ط: دار العلم للملايين، بيروت – لبنان ط: الأولى، ١٩٨٥م

استهلالا بديعًا مشيرًا إلى جوهر المعنى الكليِّ الذي يقوم في السورة"(١)، و" استبصارُ دلالة المطلع على المقصود إنَّما يكون بالتأمل والتدبر وفقا لأصول علوم البلاغة المعاني والبيان من خصائص أنماط التراكيب وضروب التصوير." (٢)

وسورة النور معقودةٌ على بيان فرائض الآداب والحدود(٣)؛ ونراها " تبدأ بإعلان قوي حاسم عن تقرير هذه السورة وفرضها بكل ما فيها من حدود وتكاليف، ومن آداب وأخلاق" (٤) وهذا الحسم في الأداء، والشدة في البداءة - بما يتناسق مع مقصودها- يتلاءم معه بناء الكلام على معنى المفاجأة بطرح المسند إليه، وقرع الأسماع بالمسند ﴿سُورَةٌ﴾ وما يليه من أوصاف تحمل معنى الإلزام والقطع، وعود الإشارة إلى غير مذكور تفخيمًا لشأنها؛ كأنه حاضر مشاهَد؛ أي: هذه سورة..،! وذِكرها منكرة إعلاءً من شأنها، وحسبها أنها منزلةً مفروضة من عند الله، كيلا يتمرد على أحكامها أحد؛ فأصلُ " الفرض: قطْع الشيء الصّلب والتأثير فيه، كفرض الحديد" (٥)؛ أى: جعلناها واجبة مقطوعا بها، ولو كانت شديدةً فهي شديدة على المعتدين، وحفظ للمؤمنين.

ورجّح أبوالسعود حذفَ المسند إليه من زاوية أخرى؛ فقال: " وأما

(١) الإمام البقاعي ومنهاجه في تأويل بلاغة القرآن د. محمود توفيق محمد سعد ص٢١١، ط: الأولى١٤٢٤هـ

(٢) العزف على أنوار الذكر د. محمود توفيق محمد سعد حاشية رقْم(٣) ص٧٩، مطبعة دار الكتب الجامعية ط: الأولى١٤٢٤هـ

(٣) الظلال٤/٢٤٨٧

(٤) السابق ٤/ ٢٤٨٥

(٥) المفردات للراغب ص٦٣٠ وانظر: الكشاف٣/٤٦، زهرة التفاسير١٠/٥١٣٧ ط: دار الفكر العربي،د.ت.

كونها مبتدأ محذوف الخبر على أن يكون التقدير فيما أوحينا إليك سورة أنزلناها فيأباه أنّ مقتضى المقام بيان شأن السورة الكريمة لا أنّ في جملة ما أوحي إلى النبي صلى الله عليه وسلم سورة شأنها كذا وكذا، وحملها على السورة الكريمة بمعونة المقام يوهم أن غيرها من السور الكريمة ليست على تلك الصفات." (١)

وأما آخر موضع ذكره الخطيب، فقوله تعالى: ﴿ طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ ﴾ [النور:٥٣] والكلام في سياق الحديث عن المنافقين؛ قال سبحانه: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ * قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ [النور:٥٣، ٥٤] والخطيب ذكر ثلاثةَ تأويلات جُرثومتُها من معنى الوصف ﴿مَعْرُوفَةٌ﴾؛ " لأنها فُسِّرت بأنها معروفة بالخلوص ومواطأة الجنان. وبأنّها معروفةٌ منهم بأنها على طرف اللسان بقرينة أنها في أهل النفاق" (٢)، وتأويل الخطيب: ( الذي يطلب منكم طاعة معروفة لا يشك فيها كطاعة الخلص من المؤمنين.. أو طاعة معروفة أمثل وأولى بكم من هذه الأيمان الكاذبة ) على التفسير الأول، والمعنى قائمٌ على اللوم والتوبيخ، والحذف يدور بين المسند إليه، والمسند. أما تأويله: (طاعتكم طاعة معروفة أي بأنها بالقول دون الفعل) فعلى التفسير الثاني، وقِوام المعنى حثٌ واستنهاض، والحذف فيه متعينٌ للمسند.

---

(١) تفسير أبي السعود تح: عبدالقادر أحمد عطا ٨٩/٤ ط: مطبعة السعادة، د.ت.

(٢) حاشيه الشهاب ٦/ ٣٩٥، وانظر: حاشية الطيبي على الكشاف ١١/ ١٢٩

وكلا الحذفين – وما يترتب عليهما من معنًى- يتحملهما السياق والمقام؛ فهما يجتمعان لا يتعاندان، بل إنّهما يتعانقان ويتكاملان! تقبيحٌ وتبكيت لصنيعهم، وحثٌ واستنهاضٌ لهممهم؛ بأن يخرجوا من دائرة نفاقهم! والعجيبُ في لغة القرآن أنّ لفظة﴿ طَاعَةٌ﴾ لم تأتِ إلا في موضعين آخرين(١)، والسياق فيهما عن المنافقين أيضًا؛ الموضع الأول في سورة النساء، قال سبحانه: ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ... ﴾ [النساء: ٨١]، والمعنى فيه متعينٌ لمعنى التبكيت والتوبيخ. والموضع الثاني في سورة محمد، قال تعالى: ﴿...فَأَوْلَى لَهُمْ * طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴾ [محمد: ٢٠، ٢١]، والمعنى فيه متعينٌ لمعنى الاستنهاض والحث. وموضع سورة النور بينهما، والدلالة فيه تحتمل المعنيين!

لكنه – رغم ذلك- يُلمح من الأسلوب قبل الجملة وبعدها ﴿طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ ﴾ما قد يُعلي من معنى تقريعهم وتوبيخهم؛ ومن ثم حمل الحذف على المسند، وذلك لما يلي:

أولا: موقع الجملة من التي قبلها ﴿قُلْ لَا تُقْسِمُوا﴾؛ فهي" تعليلٌ للنّهي أي لا تقسموا على ما تدَّعون من الطاعة؛ لأنَّ طاعتكم طاعةٌ نفاقية، واقعةٌ باللسان فقط من غير مُواطأةٍ من القلب. "(٢)

ثانيًا: العدول إلى الخطاب بعدها في قوله سبحانه: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا

(١) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم محمد فؤاد عبدالباقي ص٥٣٠، ط: دار الحديث، القاهرة ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م.

(٢) تفسير أبي السعود٤/١٣٨، وانظر: تفسير الطبري١٩/ ٢٠٦

اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ...﴾ [النور:٥٤] قال جارُ الله: " صرف الكلام عن الغيبة إلى الخطاب على طريقة الالتفات وهو أبلغ في تبكيتهم." (١)

من خلال ما سبق يتبين أنّ قولَهم: " في الحذف تكثيرُ الفائدة بإمكان حمل الكلام على كلٍّ من المعنيَين بخلاف ما لو ذُكِر فإنه يكون نصًّا في أحدهما" (٢) لا يقوى عند مواجهة السياق؛ فهو كلامٌ عائمٌ، لا يُضيء معه سراجُ المعنى ما دام بعيدًا عن المقام، غير نابع من دواخله!

(١) الكشاف ٣/٧٣

(٢) المطول ص ١٤٢

## المطلب الثالث: ( مراجعات في شواهد متعلقات الفعل )

### حـذف المفعـول به

ذكر البلاغيون أغراضا ونكات بيانية وراء حذفه، جاء منها: " أو الرعاية على الفاصلة؛ كنحو: {وَالضُّحَى*وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى*مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى} [الضحى١: ٣]."(١)

تراهم اكتفَوا به في توجيه بلاغة الحذف(٢)، وعند الزمخشري أنّ " حذفَ الضمير... اختصارٌ لفظي لظهور المحذوف " (٣)؛ قال العصام: " والأَولى بالاعتبار في هذا المقام ما ذكره صاحب الكشاف؛ إذ الحذف للرعاية على الفاصلة لا مدخلَ له في البلاغة؛ لأنه لتحصيل الفائدة التي هي من المحسنات البديعية، فذِكْره في علم المعاني إنما يصحُّ على سبيل الاستطراد، وربما تدعو رعايةُ الفاصلة إلى الذكر."(٤)

وليس القول ما قال العصام! فتناظرُ الفاصلة من علم البلاغة، غير خارج عنه، ولا طارئ عليه! في الوقت ذاته لا ينبغي أن يُكتفَى به وحدَه إعلانًا عن المقصود بالحذف! والقولُ كذلك في الاختصار اللفظي الذي حفل به في التوجيه لا يُعوَّل عليه وحده؛ إنما يكونان تبعًا لنكتة ترمق من السياق، وتلتقط من خوافي الكلمات!

---

(١) مفتاح العلوم ص: ٢٣٠

(٢) ينظر: الإيضاح ١٥٨/٢، المطول ص ١٩٧، عقود الجمان في المعاني والبيان للسيوطي بشرح المرشدي ١٤٩/١ط: مصطفى الحلبي،ط: الثانية ١٣٧٤هـ ١٩٥٥م، عروس الأفراح ١٤٤/٢

(٣) الكشاف ٢٦٣/٤، وانظر: البحر المحيط ٦٨٣/٨، نظم الدرر ١٠٣/٢٢، التحرير والتنوير ٣٩٥/٣٠.

(٤) الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم للعصام تح: عبدالحميد هنداوي٥٢٤/١، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط: الأولى١٤٢٢هـ ٢٠٠١م

وأحسبُ أنّ أوّل من جادَ بنكتة تلتصق بالمقام، وخصوصية الخطاب ما رمقَه الإمام الصَّفَويُّ (ت: ٩٥٣هـ) (١) فيما نقله عنه الدسوقي: " وذكر السيدُ: الصفويُّ وجهًا أحسن مما ذكره المصنف والكشاف في الآية، وهو ترك مواجهته -ﷺ- بإيقاع (قلى) الذي معناه (أبغض) على ضميره وإن كان منفيًّا؛ لأن النفي فرع الإثبات في التعقل، ولم يفعل ذلك في (ودعك) بل أوقع على ضمير -عليه السلام- لأن لفظ (ودع) ليس كلفظ (قلى)؛ لأن لفظ (ودع) معناه: (ترك)، وهو لا يستلزم البغض. " (٢)

وهو توجيهٌ عالٍ ليس لدى أهل البيان عليه مزيد؛ فـ (القِلَي) شِدّة البُغض، من (القَلْو) أي: الرَّمْي؛ فكأنّ المَقْلُوَّ هو الذي يقذِفُه القلبُ من بُغضه فلا يقبَلُه، أو من (القَلْي) أي: قَلَيتُ البُسْرَ والسَّوِيقَ على المِقْلَاة. أما التوديعُ فلا شيء فيه من ذلك؛ بل لعل الحسَّ اللُّغوي فيه يُؤذن بالفراق على كُره، مع رجاء العودة واللقاء! (٣)

ومن ثم فإن الغرض الرئيسَ من حذف المفعول هو تحاشي مواجهته -ﷺ- بما فيه معنى الإبعاد وشدة البغض، وإن كان في كلام

---

(١) هو: عيسى بن محمد بن عبيد الله، أبو الخير، قطب الدين المعروف بالصفوي(٩٠٠ – ٩٥٣ هـ) من الشافعية، هندي الموطن، جاور بمكة سنين، واستوطن مصر، نسبته إلى (صفي الدين) جده لأمه. له كتب منها : شرح الكافية لابن الحاجب، شرح الفوائد الغياثية في المعاني والبيان، حاشية على شرح الجامي للكافية في النحو. قال ابن العماد: كان من أعاجيب الزمان. ينظر: شذرات الذهب ٨/ ٤٢٧، معجم المؤلفين ٨/ ٣٢، الأعلام للزركلي ٥/ ١٠٨.

(٢) حاشية الدسوقي ضمن شروح التلخيص ٢/١٤٣

(٣) ينظر: المفردات ص: ٦٨٣، مقاييس اللغة ٦/٩٦، المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم ٢/٦٥٩، ٤/ ١٨٢٤، التفسير البياني للقرآن الكريم لبنت الشاطئ ص ٣٥ ط:دار المعارف، القاهرة، ط: السابعة.

منفي؛ تلطفًا ورفقًا به -ﷺ- وشفقة وحدَبًا عليه، يستترُ خلف ذلك قصدُ الاختصار، ومراعاة الفاصلة.

ثم إنّك إذا أردت أن تتلمّس هذا المعنى (التلطُّف والحدَب) في مقام الحديث عنه -ﷺ- ألفيتَه قائمًا لا يكاد يغيمُ في سياق آيات (العتاب) على اختلاف الأساليب، وتنوع الطرق؛ تراه في إيثار ضمير الغيبة في قوله تعالى: {عَبَسَ وَتَوَلَّى (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى} [عبس١،٢]، وفي تقديم إخباره - سبحانه وتعالى - بالعفو قبل أن يخبره بالذنب في قوله سبحانه: {عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ} [التوبة: ٤٣] إلى غير ذلك من الأساليب.

*****

ومن الأغراض التي قصر عليها البلاغيون نكتةَ حذف المفعول غرضُ (الاختصار)؛ قال السكاكي: " أو القصد على مجرد الاختصار لنيابة قرائن الأحوال عن ذكره كقوله عز وعلا: {أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا} [الفرقان: ٤١]؛ إذ لا يلبس أن المراد (أهذا الذي بعثه الله) لاستدعاء الموصول الراجع إليه من الصلة.." (١)

وهم بهذا الصنيع واقتصارهم على هذا الغرض من الحذف أشبهُ بابنة الجبل! يرددون كلام النحاة؛ إذ لم يتعدوا قولهم: " وإنما حذفوا العائد من الصلة؛ لأن (الذي)، وما بعده من الفعل والفاعل والمفعول جميعًا كاسم واحد، وكذلك كل موصول يكون هو وصِلَتُه كاسم واحد، فكأنهم استطالوا الاسمَ، وأن يكون أربعةُ أشياء كشيء واحد،

(١) مفتاح العلوم ص٢٢٩، وانظر: الإيضاح٢/١٥٨، ١٥٩

فكرهوا طُولَه." (١)

لعمري! ولِمَ لمْ تُراعى هذه الاستطالة، ويكون الاختصار في الكلام في مثل قوله سبحانه: {كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ } [الأنعام: ٧١]، وقوله سبحانه: {وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ} [الزخرف: ٧١]؟ (٢) وأنت ترى الفعل فيهما أكثر طولا منه في قوله: (بعث)!!

إنّ هذا التوجيهَ للحذف مقبولٌ نحويًا، فقد أدى به النحويُّ مَهمته! لكنه قاصرٌ بلاغيًّا؛ فـ" البلاغي ينظر في معاني النحو لا في ضوء قوانين النحو، ولا ليصدر حكمًا بصواب أو خطأ، فقد كفاه النحويّ مؤنة ذلك، وإنما ينظر إليها من حيث صلتُها بغرض الكلام ومقامه. " (٣)

إنّ غرض الكلام ومقامه الحديث عن سخرية المعاندين واستهزائهم برسول الله - ﷺ - وتصوير مدى بغضهم وحقدهم عليه؛ ومن ثم ترى الكلام بُني على أسلوب الاستفهام، وليه الإشارة للقريب وما يُنتجه ذلك من معنى الاستصغار والاحتقار! ثم العدول عن أن يُقال: ( أهذا الذي زعم أنه مبعوث من عند الله؟ ) فهذه الصياغة هي المطابقة لحالهم، لكنهم " أخرجوه بقولهم بعث الله رسولا في معرض التسليم

---

(١) شرح المفصل لابن يعيش٢/٣٩١

(٢) وانظر غير ذلك من الشواهد التي لم يحذف فيها العائد المنصوب من جملة الصلة: دراسات لأسلوب القرآن الكريم د. محمد عبد الخالق عضيمة ١٧٢/٣ ط: دار الحديث، القاهرة ١٤٢٥هـ–٢٠٠٤م

(٣) مقتضى الحال بين البلاغة والنقد الحديث د. إبراهيم محمد عبدالله الخولي ص١٥١ دار البصائر، القاهرة، ط: الأولى ١٤٢٨هـ– ٢٠٠٧م.

والإقرار، وهم على غاية الجحود والإنكار سخرية واستهزاء." [1]

ثم إنّ الآية {أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا} بيان وتوكيد لجملة: {إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا} فصنيعهم من السخرية والاستهزاء غير عارض عليهم وقتًا دون وقت إنما هو راسخٌ متأصل فيهم، عُبِّر عنه بالمصدر مبالغةً فيه؛ حتى كأنه نفس الهزؤ، جاء في وعاء القصر؛ أي ما يتخذونك إلا مهزوءًا به، فانحصر اتخاذهم إياه - ﷺ - في الاستهزاء؛ فلا يذكرون شيئا من أقواله، أو دعوته! [2]

أبصرتَ هذا الجو المشحون بالدخَن والضغينة، وشدة القلي وسواد السخيمة؟ إنّ حذف المفعول يلتقي ويلتصق معه جنبًا إلى جنب؛ إن نفوسَهم الخبيثة الملتوية تأبى النطق بالبعث واقعًا عليه ضميره (أهذا الذي بعثه)، إن بغضهم ودخنهم يتحاشى مجرد نسبته إليه؛ فضلا عن أن يكونوا له مذعنين أو به مؤمنين! يقول أبو موسى: " فيه إشارة إلى حال نفوسهم، فإن حقدهم على النبي - ﷺ - جعل نفوسهم تتخاذل، فلا تقول: بعثه؛ وكأنهم يتحاشون النطق بذلك." [3]

قلتُ: وهي دلالةٌ منبثقة من دلالة الحذف في قوله سبحانه: {مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى} مع تباين المقامات، واختلاف المساقات. وعليه فإنّ التعويلَ على مراعاة الفاصلة، أو مجرد الاختصار فيه كلَبٌ وإجحافٌ بمَيزة الحذف، واعتداءٌ عليها بإبعادِ سياق القول ، ومقصود الكلام للإعلان عن الهدف الأسنى عما هو قلادةُ الجيد، وقاعدة التجويد!

(١) البحر المحيط ٦/٦٠٥، وانظر: الكشاف ٣/٩٣

(٢) ينظر: نظم الدرر١٣/٣٩١، حاشية الطيبي على الكشاف ١١/٢٣٩.

(٣) خصائص التراكيب ص ٣٥٧

## تقديم بعض معمولات الفعل على بعض

يذكر البلاغيون أغراضا لتقديم بعض معمولات الفعل على بعض؛ من ذلك أن يكون " في التأخير إخلالٌ ببيان المعنى؛ كقوله تعالى: {وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَه}[غافر: ٢٨]، فإنه لو أخّر {مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ} عن {يَكْتُمُ إِيمَانَه} لتوهم أن {مِنْ} متعلقة بـــ {يَكْتُمُ}، فلم يفهم أن الرجل من آل فرعون " (١)، " وهذا توجيهٌ سديدٌ ليس عليه اعتراض." (٢)

مرادهم أنه لو قيل – في غير القرآن – (وقال رجل مؤمن يكتم إيمانه من آل فرعون) لراح إلى الوهم أن الرجل يكتم إيمانه خوفًا من آل فرعون، ولم يكن الكلام إخبارًا عنه أنه من آل فرعون. والراجح من أقوال أهل العلم أنه كان من قوم فرعون، وآمن بموسى، وكان يُسِرُّ إيمانه من فرعون وقومه خوفًا على نفسه. (٣)

والسؤال: هل ثمة تقديم بين المعمولات؟ وأن هناك تحولًا صار في ترتيبها خُولِف به أصلُ قاعدة النحاة إنتاجًا لهذه المَهمة، وتحقيقًا لهذه الفائدة (خوف التوهم)!

قاعدةُ النحاة تعلن عن نفسها:" إذا نُعت بمفرد، وجملة، وظرف أو شبهه فالأقيس تقديم المفرد، وتوسيط الظرف أو شبهه، وتأخير الجملة؛ كقوله تعالى: {وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَه}[غافر:

---

(١) الإيضاح ١٦٧/٢/١، وانظر: شروح التلخيص١٦٤/٢، المطول ص ٢٠٢، بغية الإيضاح٢١٣/١، خصائص التراكيب ص ٣٦٩.

(٢) خصائص التعبير القرآني٩٨/٢/١

(٣) ينظر: تفسير الطبري٣٧٥/٢١

٢٨]، وقد تُقدّم الجملة؛ كقوله تعالى: {فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ} [المائدة: ٥٤]"(١)

ثمة عجبٌ! ما استشهد به البلاغيون للتقديم تبصره عند النحويين شاهدًا على أصل القاعدة! إن الترتيب جاء على أصله وسجيته، وليس ثمة مخالفة أو عدول؛ فـ" لا يكون تقديم إلا إذا كان هناك عدولٌ بالشيء عن محله الذي هو له في الأصل ، فكلُّ ما وضع على أن يكونَ سابقًا فلا يكونُ من التقديم المبني على العدول دلالةً على مرغوب في الإبانة عنه ... بل هو تقديمٌ من أصل اللغة." (٢)

أما عن الغرض الذي من أجله ادُّعي التقديم (في التأخير إخلال بالمعنى) فمبناه على أن في تأخير {مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ} احتمال تعلقه بالفعل {يَكْتُمُ}! قال أبوحيان: " وقد رُدّ قول من علق {مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ} بـ {يَكْتُمُ}، فإنه لا يقال: كتمت من فلان كذا، إنما يقال: كتمت فلانا كذا، قال تعالى: {وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا} [النساء: ٤٢] " (٣) فالفعل يتعدى بنفسه إلى مفعولين؛ قال الزمخشري:" كتمته السر كتما، وكتّمه بالغ في كتمه." (٤)

هذا ما حاك في صدري تجاه صنيع البلاغيين مع الشاهد، أثبته من خلال كلام أيمتنا - رحمهم الله - ثم إني ألفيتُه بعد ذلك عند الإمام السبكي في قوله: " فيه [ يقصد توجيه البلاغيين] نظرٌ من وجهين:

---

(١) شرح التسهيل لابن مالك تح: د. عبد الرحمن السيد، د. محمد بدوي المختون ٣/٣٢٠، ط: هجر للطباعة، ط: الأولى ١٤١٠هـ ١٩٩٠م، وانظر: دراسات لأسلوب القرآن١٠/٨

(٢) الإمام البقاعي ومنهاجه في تأويل بلاغة القرآن بتصرف وحذف ص٢٥٥

(٣) البحر المحيط ٧/٦١٠، وانظر: التفسير الكبير ١٤/٢٧/٥٠

(٤) أساس البلاغة للزمخشري ص٨١٠، دار ومطابع الشعب، القاهرة ١٩٦٠م

أحدهما: أن الوصف بالجملة أصله التأخير عن الوصف بالجار والمجرور، فهذا ماشٍ على الأصل فلا حاجة لتعليله وما كان بالوضع والذات لا يعلل بالغير، ثم لا يسمى ذلك تقديما، فإن التقديم يكون لشئ نقل عن محله إلى ما قبله، كذا صرح به الزمخشري وهو القياس.

الثاني: أن هذا التوهم إنما كان يصح أن لو كان يكتم يتعدى بـــ(من)، وليس كذلك فإنه يتعدى بنفسه، فهذا الوهم ليس له مجال، وما يقع فى كلام الناس من تعدية يكتم بمن الظاهر أنه ليس له أصل. "(١)

**التقديم لرعـاية الفاصلة:**

يورد الخطيب هذا الغرض مباشرة بعد الغرض السابق؛ فيقول: " أو بالتناسب كرعاية الفاصلة، نحو: {فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى} [طه: ٦٧]." (٢)

ومراعاة الفاصلة، والمحافظة على إيقاع النغم الصوتي من الأسس التي يحرص عليها الأداء القرآني في بيان المعنى، وتمكينه في النفوس، لا مشاحة في ذلك، لكنها -في الوقت ذاته- لا تكفي وحدها لإرواء غلة الظاميء؛ فلا تكون مقنعًا ينتهي عنده المتدبر في التوجيه، خاصة في الإعجاز البياني ؛ إذ إن هذه المراعاة لا تحسن إلا إذا كان " متعلقا معناها بمعنى الكلام كله تعلقا تاما، بحيث لو طرحت اختل المعنى واضطرب الفهم" (٣)؛ فلو كان نظم الآية على غير حرف الألف، وجرى

---

(١) عروس الأفراح ٢/ ١٦٠

(٢) الإيضاح١/٢/١٦٨، وانظر: المثل السائر٢/١٧٤، الطراز٢/٣٨، شروح التلخيص٢/١٦٤، المطول ص٢٠٢

(٣) البرهان في علوم القرآن١/ ٧٩

الترتيب على أصل الوضع لزامًا يترتب عليه تغيُّر في الدلالة، وخروج عن مقصود المعنى.

بيان ذلك أن الترتيب الطبعيّ أن يُقال – في غير القرآن – (فأوجس موسى خيفة في نفسه) فيترتب عليه أن يكون قوله: (في نفسه) محتملا وجهين من الإعراب؛ الأول: أنه صفة للنكرة قبله (خيفة) وعليه يفسد المعنى؛ إذ يصبح الكلام ذمًا لموسى - عليه السلام - فثمة خوفٌ كان كامناً في أعماق موسى، تنطوي عليه نفسه فبان وظهر الآن، مع لقاء السحرة!

الوجه الآخر؛ أن يكون متعلقًا بالفعل: (أوجس)، والمعنى عليه صحيح، لكنه يترتب على تأخره إيهام غير مراد، وهو أن الخوف ظهر على وجهه، ولاحت أماراته للسحرة وملأ فرعون؛ فكان تقديم (في نفسه) قطعًا له لهذا الإيهام، وإزالة له من الكلام. (١) وهي دلالة تلتقي واختيار مادة ( وجس) التي تعني: الصوت الخفيّ " من الهاجس الذي يخطر بالبال، وليس يتمكن. " (٢)

وعليه فإن هذه الآية هي الأولى استشهادًا على أنّ في التأخير إخلالًا ببيان المعنى، وليس قوله تعالى: {وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَه}.

(١) ينظر: لمسات بيانية لسور القرآن الكريم د. فاضل السامرائي ص  ط: دار عمار، عمان – الأردن، ط: الثالثة ١٤٢٣هـ ٢٠٠٣م

(٢) البحر المحيط ٣٢٠/٦، وانظر: المعجم الاشتقاقي المؤصل (١/ ٣١٢)

## المطلب الرابع: ( مراجعات في شواهد الأسلوب الإنشائي )

### القـول في الإنشــاء

بعد أن أنهى الخطيبُ حديثَه عن الإنشاء الطلبي بطريق التمني، والاستفهام، والأمر، والنهي، وذكر ما يسكنُها من معانٍ وأسرار، أردف حديثَه بقوله: " واعلم أنّ هذه الأربعة – أعني: التمني، والاستفهام، والأمر، والنهي – تشترك في كونها قرينة دالة على تقدير الشرط بعدها؛ كقولك: ( ليت لي مالا أنفقه) أي: إنْ أُرزقه. وقولك: (أين بيتك أزرك) أي: إن تُعرِّفنيه. وقولك: (أكرمني أكرمك) أي: إن تكرمني... وقولك: (لا تشتم يكن خير لك) أي: إن لا تشتم. وأما العرض كقولك لمن تراه لا ينزل: (ألا تنزل تصب خيرًا) أي: إنْ تنزل، فمولد من الاستفهام وليس به؛ لأن التقدير أنه لا ينزل، فالاستفهام من عدم النزول طلب للحاصل وهو محال." (١)

إنّها لقضيةٌ خلافيّة، انشقت العصا فيها بين النحاة؛ هل الجازمُ للجواب الجملة الطلبية نفسُها لما تضمنته من معنى الشرط، أم شرطٌ صناعيٌّ مقدر؟(٢)

البلاغيون – كما يظهر من قول الخطيب– يرون تقدير شرط، تكون هذه الأساليب قرينةً عليه! وهو اختيار – فيما أحسب– ضعيفٌ كليل، وليت شعري! ألا يَجرُّ هذا القول إلى تناسي دلالة أسلوب الطلب، وتَماهي دلالته مع دلالة الشرط؟ وأيُّ فارق نصغى إلى همسه إذا استَوْطَأنا هذا المِهاد، وقنِعنا بذا التقدير؟!

خيارُ القول أنّ الجازم للجواب هو جملة الطلب " من غير حاجةٍ

---

(١) الإيضاح بتصرف وحذف ٣/١/ ٨٩، وانظر: شروح التلخيص٣٢٨/٢، المطول ص٢٤٢

(٢) ينظر: شرح المفصل ٢٧٣/٤، حاشية الصبان ٤٥٤/٣ طبعة دار الكتب العلمية بيروت، لبنان ط: الأولى ١٤١٧هــ ١٩٩٧م

إلى تقدير شرط أصلا " [1]، حتى يبقى لكل أسلوب خصوصياته؛ فالأساليب كالألفاظ المفردة؛ فكما أنّ اللفظ المفردَ قد تشترك أصل دلالته مع غيره إلا أنه تبقى لكل كلمة خصوصياتُها وسماتها التي تتمازُ بها عن صاحبتها. فكذلك أساليبُ الكلام؛ كلٌّ أسلوب له أثره ومنسمهُ، قد يشاركه غيره، لكنْ لا يأتي عليه! إنما يبقى لكل أسلوب عبيرُه وأريجه الخاصّ به، وأسلوب الشرط له دلالةٌ منوطةٌ به، وكذلك أسلوب الطلب له دلالةٌ مَعْنيٌّ بها، ولكلٍّ مقامٌ لا ينهضُ به الآخر.

إنّ دلالة الشرط محصورةٌ في معنى التعليق (تعليق الجواب على الشرط، والمسببات على الأسباب)؛ أي إنّ الجواب أو المسبَّبَ هو مَغرِس الكلام، وغايةُ المراد؛ فجملة الشرط تنزِع إليه وما فعل الشرط إلا وسيلةٌ إليه! أما دلالةُ الأسلوب الطلبي فالأصلُ فيها أن (الطلب، والجواب) مطلوبان ملتمَسان، وليس أحدهما وسيلةً للآخر، وقد تقتصر الدلالة على الطلب دون جوابه! قال سيبويه: " وتقول: ائتني آتك، فتجزم على ما وصفنا، وإن شئت رفعت على أن لا تجعله معلقاً بالأوّل، ولكنَّك تبتدئه وتجعل الأول مستغنياً عنه؛ كأنَّه يقول: ائتني أنا آتيك " [2]، و" جاء في القراءات السبعية رفع الجواب وجزمه، وكذلك في الشواذ" [3]، وهذا مما يُعدَم حدوثُه في جملة الشرط.

يقول ابن القيم – رحمه الله– مبيناً الفرق بين التعبير بـــ (قم أكرمك)، و( إنْ تقمْ أُكرمْك): "في قوله: (قم أكرمك) فائدتان ومطلوبان: أحدهما: جعل القيام سببًا للإكرام ومقتضيًا له اقتضاءَ الأسباب لمسبباتها. والثاني: كونه مطلوبا للآمر مرادًا له، وهذه الفائدة لا يدل عليها الفعل

(١) حاشية الدسوقي ٢/٣٢٨

(٢) الكتاب ٣/ ٩٥، وانظر: دراسات لأسلوب القرآن الكريم ١١/ ٣٣٢

(٣) دراسات لأسلوب القرآن الكريم ١١/ ٣٣٢

المستقبل فعدل عنه إلى لفظ الأمر تحقيقًا له، وهذا واضح جدًّا." [١]

قلتُ: ولعل السرَّ في حصول المطلوب الثاني ( كون الفعل مطلوبا للآمر) في أسلوب الطلب، وعدمه في أسلوب الشرط صحةُ استقلال جملة فعل الطلب والاكتفاء بها دون الجواب؛ فيصح أن تقول: (قم) وتمّ الكلام وصحّ المعنى، خلافًا لأسلوب الشرط فلا يمكن استقلالية فعل الشرط وحدَه؛ فهو مفتقر إلى الجواب لا يقوم دونه، ومن هنا كانت جملةُ الطلب مرادًا طرفاها.

إذن فالعَلاقةُ بين الأسلوبين هي علاقةُ العموم والخصوص، وليست علاقةَ الاتحاد والحلول! دلالة الشرط دلالة قاصرة تقوم على ساقٍ واحدة لا تحيد عنها هي دلالة (التعليق). أما الدلالة في الطلب – بأنواعه الأربعة – فهي دلالة متنامية تقوم على ساقين؛ كلتاهما لها حضورٌ ظاهر الرُّسوم في ذهن المتكلم؛ ومن ثم فلا داعي للذهاب إلى شرط مقدر يضيع معه سمت الأسلوبين.

وإلا فأين يروحُ أريج التمني، والاستفهام، والأمر، والنهي.. عند تقدير شرط؟ ولمَ لمْ يأتِ الكلام عن طريقه مباشرةً دون اللجوء إلى تقديره؟ وهل ليس ثمة فارقٌ بين أن يقول القرآن: ﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي *وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴾ [طه ٢٥: ٢٨] وبين أن يُقال – في غير القرآن– : إن تشرح صدري، وتيسر أمري، وتيسر قولي، وتحلل عقدة من لسان يفقهوا قولي؟

ومجملُ القول؛ شواهد الطلب بأنواعه الأربعة لا تحتمل تقدير شرط معها، إنما هي أساليب مستقلة بنفسها، ولكل أسلوب منها ما ليس لغيره؛ فضلا عن أن يكون لطريق آخر.

---

(١) بدائع الفوائد١/١٠٥ ط: دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، د.ت، وانظر: معاني النحو د. فاضل صالح السامرائي٤/٢٠ ط: دار الفكر، عمان، ط: الأولى١٤٢٠هـ ٢٠٠٠م

## الخاتمة

الحمد لله الذي باسمه يُبدَأ الذكر ويختم، وصلَّى الله على النبي محمد، وآله وسلم.

**أما بعد**

فقد بانَ من خلال البحث عدّةُ أسباب رئيسةٍ تسللت إلى توجيه بعض الشواهد البلاغية؛ فكانت وراء قصورها في أداء دورها، والقيام بمهَمّتها، وترتب على ذلك تفلُّتُ هذه الشواهد بوضعها في غير موضعها الأصيل درسًا واستشهادًا، كان من أبرز هذه الأسباب ما يلي:

أولا: احتذاءُ قول النحاة، والتحجُّر عند توجيهاتهم؛ دون الارتقاء عليها، والتطلُّع إلى ما ورائها بالنظر في معاني النحو، والتقاط ما يتناغم منها مع المقام.

ثانيا: الاكتفاء بالسبب الظاهريّ؛ كمجرد الاختصار، أو مراعاة الفاصلة والقافية... والقُنعانُ به في التوجيه والاستشهاد؛ دون رمق السياق، والتهدِّي به للنفوذ إلى ما يستترُ خلف هذه العلة اللفظية من نكات وأسرار.

ثالثًا: عدمُ المراقبة الدقيقة لنسيج سياق الشاهد، وذلك بالانشغال برسم الحدود، وتقنين المصطلحات، أدّى إلى غياب دقة التوجيه والاستدلال.

رابعًا: الأصلُ أنّ رجالاتَ البيان يعتمدون علومًا عديدة، ومعارفَ متنوعةً من النحو، وأصول الفقه، والعقيدة... وغيابُ إتقان هذه العلوم يعني غياب التوجيه السديد للشاهد المتصلِ بها؛ إذ إنّ معرفتها، والوقوف عليها عمادُ التوجيه ولبابه.

كما لحَظ البحثُ أن المفسرين– طيّب الله ثراهم – كانت لهم الكلمة العليا، والتوجيه الأسنى للشاهد القرآني سواء أكان ذلك بالإشارة أم بالعبارة؛ إذ إنهم الأقرب للمعنى، وسياق الورود.

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

# ثبت أهم المصادر والمراجع

**أولاً: القرآن الكريم**

- أسباب نزول القرآن للواحدي، تح: السيد أحمد صقر، طبعة: دار الكتاب الجديد، لجنة إحياء التراث الإسلامي، الطبعة الأولى ١٣٨٩هـ ١٩٦٩م.

- أنوار الربيع في أنواع البديع تح: شاكر هادي شكر، مطبعة النعمان، العراق، الطبعة الأولى، د.ت.

- البحر المحيط لأبي حيان تح: د/ عبد الرازق المهدي طبعة: دار إحياء التراث العربى، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م

- البرهان فى علوم القرآن الزركشي تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة: دار المعرفة بيروت - لبنان، الطبعة الثانية د. ت

- بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح عبدالمتعال الصعيدي ط: مكتبة الآداب، ط: الأولى١٤٣٠هـ ٢٠٠٩م

- التحرير والتنوير للإمام محمد الطاهر بن عاشور ط:دار سحنون، تونس١٩٩٧م

- تفسير أبي السعود تح: عبدالقادر أحمد عطا ط: مطبعة السعادة، د.ت.

- تفسير الطبري (جامع البيان في تأويل القرآن) تح: أحمد محمد شاكر، طبعة: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ ٢٠٠٠م.

- تفسير القرآن الحكيم المسمى بـ(تفسير المنار) محمد عبده. محمد رشيد رضا، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر ١٩٩٠م.

– التفسير الكبير المسمى بـــ(مفاتيح الغيب) للإمام الرازى ط: دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط: الأولى١٤١١هـــ ١٩٩٠م

– حاشية الشهاب المسماة عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي لشهاب الدين الخفاجى. ط: دار صادر، بيروت د.ت.

– خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعانى د. محمد محمد أبو موسى ط: مكتبة وهبة مصر، الطبعة الرابعة ١٤١٦هـــ ١٩٩٦م.

– دراسات لأسلوب القرآن الكريم الدكتور/ محمد عبد الخالق عضيمة، دار الحديث، القاهرة ١٤٢٥هـــ ٢٠٠٤م.

– دلائل الإعجاز للإمام عبدالقاهر الجرجانى. قرأه وعلق عليه/ محمود محمد شاكر ص١٨٤، طبعة: الخانجي القاهرة، الطبعة الثالثة ١٤١٣هـــ ١٩٩٢م

– ديوان بشار بن برد، تقديم وشرح/ محمد الطاهر بن عاشور وزارة الثقافة، الجزائر، ٢٠٠٧م.

– روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لشهاب الدين الألوسي، تح: علي عبد الباري عطية، طبعة: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى ١٤١٥هـــ.

– شرح المفصل لابن يعيش قدم له: الدكتور إميل بديع يعقوب ط: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ط: الأولى ١٤٢٢ هـــ ٢٠٠١ م

– شروح التلخيص ط: دار إحياء الكتب العربية، فيصل عيسى البابي الحلبي د.ت.

- علوم البلاغة وتجلي القيمة الوظيفية في قصص العرب، المعاني – البيان- البديع، د/ محمد إبراهيم شادي ط: دار اليقين، الأولى، ١٤٣٢هـ ٢٠١١م.

- فقه اللغة وسر العربية للثعالبي، تح: عبد الرزاق المهدي ط: إحياء التراث العربي، الطبعة: الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ ٢٠٠٢م.

- في ظلال القرآن أ/ سيد قطب ط: دار الشروق الطبعة: السابعة عشر١٤١٢هـ

-الكتاب لسيبويه تح: عبد السلام محمد هارون، طبعة: مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة: الثالثة ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨م.

- كتاب المطول في شرح تلخيص المفتاح لسعد الدين التفتازانى، الناشر: المكتبة الأزهرية للتراث مطبعة أحمد كامل ١٣٣٠هـ.

- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل للزمخشرى، تح: محمد الصادق قمحاوي ط: الحلبى، مصر، ط: الأخيرة ١٣٩٢هـ ١٩٧٢م

- المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز لابن عطية الأندلسى، تح: عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، السيد عبد العال السيد إبراهيم، ط: دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الثانية د. ت

- معاني القرآن للفراء، تح: أحمد يوسف النجاتي، محمد علي النجار، عبد الفتاح إسماعيل شلبي، علي النجدي ناصف، ط: دار الكتب والوثائق المصرية، ط: الثالثة ١٤٢٢هـ ٢٠٠٢م.

- المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم د. محمد حسن حسن جبل، طبعة: مكتبة الآداب، الطبعة الأولى٢٠١٠م.

– معاهد التنصيص على شواهد التلخيص لأبي الفتح العباسي تح: محمد محيي الدين عبد الحميد ط: عالم الكتب – بيروت.

– مفتاح العلوم للإمام السكاكي ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور، طبعة: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الثانية ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧ م.

– مقاييس اللغة لابن فارس تحقيق وضبط: عبدالسلام محمد هارون، طبعة: دار الفكر، الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م.

– نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور للإمام البقاعي، طبعة: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

– نهاية الإيجاز للرازي تح: بكري شيخ أمين، ط: دار العلم للملايين، بيروت – لبنان ط: الأولى ١٩٨٥م.